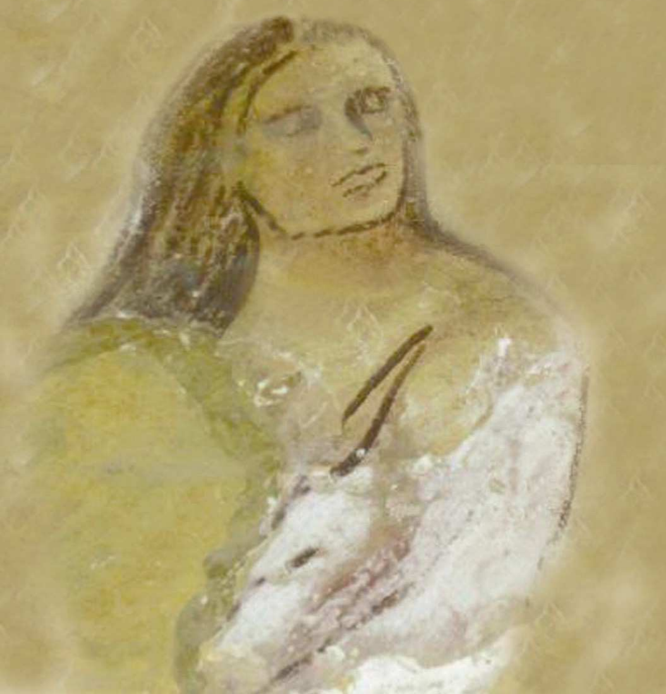
# تعالى.. وجع مالك

حميد الربيعي



رواية



الكتاب: تعالى .. وجع مالك

تأليف: حميد الربيعي

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين




طباعة . نشر . توزيع

دمشق/ جوال: ٠٠٩٦٣ -٩٤٤٦٢٨٥٧٠

Email: akramaleshi@gmail.com

حميد الربيعي

# تعالى .. وجع مالك

رواية

# ١ـ الفتيان

- أنا لست داعرة!!

- ومستهترة.

وجها البومة ينعقان كل صباح ، لم أعد أكترث منذ أن قررت تغيير نمط حياتي.

العائلة لا قرار لمستقرها ، أخت كبرى نقعتها العنوسة ولما تختمر ، الوسطى تباهت بجمالها فانضوى خلف وهم مستديم. الأخ الأكبر اعتلف الحشيشة فصارت قوته اليومي ، الذي يليه: انتسب شرطياً في جهاز أمني ، الثالث هو في حقيقته صبي جامع. أنا بنت البطة السوداء.

تقع دارنا في الحوض السفلي للهضبة ، أجتاز البيت الأول والزقاق الرابع لأصل الجامع ، الذي أصله كنيسة ، هنا تجمع المنطقة كلها ، حيث المحلات والسوق وملتقى العشاق.

كنت أسعد ، فيما مضى ، حالما أصل هنا ، بيد إني الآن قليلة الإكتراث بما حولي ، تأتى ذلك لي منذ مدة ليست بالبعيدة إطلاقاً ، أنا في كل فترة من عمري في حول جديد ، أخرج فيها على رتابة

البيت وبما نلته من مكانة بينهم.

أنا بنت البطة السوداء التي تجلب القوت لعائلة مشلولة ، في البداية أشعر بفرح تجاه واجبي هذا لكنه بعد فترة صار عبئاً يثقل كاهلي ، أنا في الحقيقة فرحة بما حدث إذ أصبحت حرة بالتنقل ، سنوات إنتظار العريس وراء جدران البيت ولت ، مذمومة ومقيتة على روحي وأجاهد نسيان تلك الفترة.

كل صباح ، وقبل الساعة الثامنة ، أخرج من البيت ، متجهة صوب عملي ، لا يبعد كثيراً ، الشارع الرئيسي والحيوي يربط المكانين ، الأول عند البيوت الواطئة والثاني في مقدمة الفلل الجميلة.

اعتدت الشارع حتى حفظته عن ظهر قلب ، كل يوم مرتين ولمدة ثلاث عشرة سنة متوالية أقطعه. عندما أخرج صباحاً أسلك ضفته الغربية ، عند المنتصف أنعطف إلى الجانب المقابل ، في العودة أبدأ المشي بعكس الاتجاه. هل أعدد دكاكينه ونوع البضاعة المعروفة ومن غاب أو مرض من الباعة؟ إنها من اليسر ، نفسي عافت هذه الترهات وبت أهتم بأشياء أخرى ، أكثر تسلية ومتعة.

الناس يعرفون متى أمر ويحفظون أيضاً كل ألوان ملابسي ، حتى الجديد يصبح مألوفا في اليوم التالي ، راعني مرة عندما مر خاطر في بالي:

- هل يعرفون ملابسي الداخلية؟

كان هذا الخاطر نقطة تحول في حياتي ، وستجعل ملابسي

الداخلية علامة كبرى في مسيرتي وتصرفاتي.

كنت صبية فأنكفأت في البيت يومين خجلاً من أن أقابل أحداً ، حالما أتذكر تلك الحادثة أقهقه في داخلي.

- لكم كنت ساذجة!!

الموضوع خلف لي واحدة من أجمل عاداتي. إذ بدأت الاعتناء بشكل مفرط في اقتناء ملابسي الداخلية وما رافقها أيضاً من هوس بتلك المنطقة الخاصة من جسمي.

المراقبة المستمرة قادتني إلى تنمية مهارات المنطقة ، تلك المهارات أودت بي للعيش منفردة وإن كنت في كنف عائلة.

من يصدق أن فتاة نضج ثمرها لا تشارك أختيها بالأحاديث الخاصة!! ، لم تألفا هذا التصرف وعلى مر الأيام صارتا تتجاسران وتتنابذان بأفحش العبارات عني.

تلك المشاجرة كل صباح. لم أعد أكترث لهما ، تشطان غضباً عندما لا أرد ، وأسمع صك أسنانهما غيظاً ، اليوم قررت الرد لمجرد المجادلة ليس إلا.

- أنا لست داعرة.

وخرجت أصفق الباب تجاه وجهين سيؤطرهما الحنق.

أعيش حياتي ولتموتا ندماً ، في الحقيقة أدفعهما قسراً إلى مخاصمتي ما دامتا ارتضتا مجيء العريس لحد باب البيت.

ثمة محطات ثابتة في مشواري الصباحي ، عندما كنت تلميذة معهد عقدت صداقات مع بعض الفتيات ، هن الآن يعملن في

المجمع الصحي القريب من مكان عملي ، هذه المحطة هي الأشهر تحبباً إلى نفسي ، أثرثر معهن بعض الوقت لكني أيضاً أصطاد ما أشاء من مراجعي المجمع.

قبلها بخطوات ومثل كل يوم أدلف إلى محل العطور ، أشتري الجديد دائماً وأقلب البقية من حيث ألوانها وروائحها ، اعتدت هذا المحل لأن البائعة كانت إحدى صاحباتي ، بعد عامين صار البائع شاباً جميلاً ولم انقطع عن التردد إلى المحل ، أصبحت أحصل على عطوري بثمن بخس ، كثيراً ما أجد هدية تنتظرني ، لم أرد مرة هداياه ولم أقطع ابتساماتي عنه.

أمي تغتاظ من وفرة العطور التي أستعملها ، الأختان تنالان بعضاً مما عندي وتكلان المديح لاختياري. ما زلت أتعطر رغم إن البائع استبدل بثان وثالث ، والثالث كان أعور فلم أعد أدلف المحل ، يناولني كيس العطور كلما رآني.

- تكفيني تحيتك.

اكتفى الرجل بالقليل ، وأنا منذ حين اعتدت الدخول إلى المحل الجديد ، فتح منذ فترة وجيزة وقيل لي أن العطور أصلية وتأتي مباشرة من ميلانو.

أقصى ما تأخذ مني فرجة الصباح من المشي باتجاه عملي ، ربع ساعة ، إن طالت فإنها لن تتجاوز النصف ساعة.

مرة واحدة عنفني المدير لتأخري عندما تعرفت على طبيب جديد في المجمع. ضرني التعنيف فانقطعت عن تلك الزيارة شهراً

كاملاً ، يومها رجعت إلى البيت مقلوبة المزاج ، وحتى يتعكر أكثر وجدت وجها البومة تنتظران عند الباب وتتحاوران بالهمس. شققت طريقي متعمدة بينهما ولم أبادر بالتحية. فغرا فاهما باستغراب ، شعرت ببعض الراحة ، خاصة بعدما أويت مباشرة إلى سريري ، ليس النوم ما أطلبه بل السكينة والإختلاء بوحدتي.

تعالى بعض الهمس في أرجاء الدار ، أي منهما لم تقترب ، أختي الكبرى أغلقت بعد برهة باب الغرفة. كانت مظلمة إلا بعض من أشعة الشمس تخترق ثقوباً في الجدار الموازي لسريري ، طالعت قطرات التراب ترقص في فيض الضوء ، صنعت من أصابعي منشورياً فتحلل الضياء إلى ألوان شتى ، ياما تسليت بهذه اللعبة عندما كنت حبيسة الدار.

كل مرة وكل يوم وكل سنة أصنع أشكالاً على سطح الجدار ، أبسط يدي فوق خيوط الضوء فتنعكس ظلالاً على السطح ، منها المألوف الذي اعتدته ومنها المخيف الذي يفزز الأختين ، فتظنان أن عفاريت تتحرك في الغرفة ((سالمة الكبرى باستمرار)) ترتاح وتسكن الغرفة لما ترى ظلال الطيور ترفرف فوق الجدار وتعدها بشارة خير ، ((سالمة الوسطى باستمرار)) صار لديها يقين بأني أجلب العفاريت معي حال دخولي البيت وبالذات عندما أرقد على السرير.

إنها لعبة وانقضت لكنها تركت المقت بين الأخوات الثلاث. منذ تركت المدرسة ، بعد مرحلة الإعدادي ، أويت إلى البيت ، ولم أخرج منه إلا بعد انصرام ست سنوات ، انتظرت فيها ، مثل أختي

مجيء العريس ليطرق بابنا.

لقد قررت أمي إن المرحلة الدراسية انتهت وعلي أن أتهيأ لاستقبال العريس ، وقد تواصلت مع المدرسة أكثر من الأختين. الأولى لم تدخلها إطلاقاً والثانية توقفت بعد مرحله الإبتدائية.

لم تمر سنوات العزلة هينة ، بل أخذت معها حلاوة روحي وأمنياتي بالسعادة ، نضج جسدي خلالها وخربت مشاعري.

كنا ثلاث أخوات ، نتشابه بأشياء كثيرة ولم نختلف يوماً عن غزل البنات ، نعدد ما يطرأ على أجسادنا من تحوير ونفيض في المعنى والمغزى ، كل واحدة ترى الأمر من منظارها. نمو نهديّ خلق لي أزمة ولم أتقبل الأمر ببساطة مثلما تراه الأختان.

احتفظت لنفسي وبعيداً عن عيونهما بأشيائي الخاصة ، البحتة ، اتفحصها على السرير ما دمت وحيدة وفي جوف الليل ، نادراً ما تعرفان بما يحدث في سريري ، حتى ضبطتني الأم في صباح يوم مكفهر ، كانت الريح تعصف بظلفة النافذة فدخلت ، نسيت الشباك مفتوحاً ، لما رأتني نائمة وعجيزتي معلقة في الهواء ، بطني فوق الفراش وساقاي يصنعان مع العجيزة مثلثاً قائماً إلى الأعلى.

التاعت صارخة ، لكني كذبتها أمام الأهل.

- إنها تتخيل. العفاريت أوحت لها بذلك.

وندمت الأم على ما بدر منها ، لكنها اتخذت قرارها بخروجي من جو العزلة ، فكت أسري بعد مضي السنوات المقررة أصلاً ، وجدت من مناسبة عيد ميلادي عذراً ، نصحتني بالخروج إلى المدينة القديمة

- إشتري حاجيات حفلة ميلادك.

لم نحيّي مثل هذه الحفلات ، في السنة الحادية والعشرين من عمري عملت أول احتفال بمولدي الذي يصادف قبل ليلتين من رأس السنة.

فعلاً خرجت باتجاه سوق الترك ، أملءُ رئتي بهواء نقي وأتذوق طعم الشمس. ذلك اليوم سيظل مشهوداً طيلة حياتي ، لقد اتخذت فيه القرار الصعب ، وشهدت نزول الشهاب وسمعت فيه أول كلمة غزل.

بعد اختتام حفلة الميلاد أعلنت أمام الجميع:

- سأبحث عن عمل غداً.

الأم رحبت ، الأب أطرق أرضاً ، البقية التزموا الصمت فمر قراري بسهولة ، بإرادتي اخترت حياتي الجديدة.

يا لتلك الأيام وذكراها ، أقارن وأتعجب لما آلت إليه.

- الشطارة تجلب المهارة.

كما تقول أمي ، صرت أكثر من ماهرة في ما يسمى (صناعة المرض) ، طبقت بواكير مهارتي في شارع العشاق ، هو في الحقيقة كان يسمى الشارع الشوك ، إذ به تنتهي مدينة (أويا) لم يرص بالزفت ، بعده بقليل تقبع مجاري المدينة الكبرى ، تفيض روائحها في أيام الصيف الخانقة فنفر ، نحن سكان الهضبة ، مرضى الربو من دون كل سكان العاصمة ، أصبح الشارع يحمل اسمه الجديد بعد انتشار جهاز الهاتف المحمول بين الناس ، اعتاد العشاق أن يتواعدوا

فيه ما دام يواجه الصحراء ، تسكن بعض العوائل المحافظة على طول الرصيف الشمالي ، لكنهم رحلوا بعدما كثر رواد الشارع ، ودون دراية تسلل إليه العمال العزاب ، وأصبح يكنى بين العامة بشارع المصريين.

أنا وجدته مرتعاً طيبا لممارسة مهنتي ، أرتاده وقت الظهيرة ، وأقفل عائدة بعد ساعة ونيف ، أتفقد بعض مرضاي ، حقن إبر أو قياس ضغط لكن بحضور العمال صرت أداوي الجروح ، مريدوي يزدادون دائماً وأعزو ذلك إلى مهارتي والإبتسامة أثناء الوداع.

حقا ثمة من يغازلني أو يتحرش لكنهم اعتادوا إن الشفاء يكمن في الإبتسامة العريضة. يضايقني من يخرج عن طوره ، خاصة في بيوت العزاب ، لكن لم تصل الأمور لحد الفحش ، اقطع سحر الإبتسامة عمن تنفره نفسي ، مما يضطره اللجوء إلى المجمع الصحي لتكملة المداواة.

أيام مفعمة بالحياة ولم أملها أبداً ، وما زالت تشكل رصيدي عند طوابير المراجعين للعيادة.

يوم خرجت أبحث عن عمل لم تكن العيادة قد أنشئت ، حدث ذلك منذ ثلاث سنوات ، أثارت بنايتها الكآبة في نفسي فاجتزتها بسرعة ، كنت أقطع الشارع مالكة زمام أمري بيدي ، في أخر الشارع وقبل الوصول إلى السوق دخلت بناية جميلة ، إلا إني خرجت باكية ، ولمدة أسبوع ، كل بناية أدخلها أخرج منها باكية ، فجل ما عرض علي من عمل يدعوني إلى البكاء.

لم أظهر قهري أمام أفراد العائلة ، أدعي أني لم أجد فرصة بعد ، الأم تقول:

- اصبري ، والشطارة تجلب المهارة.

حتى أدمنت البكاء ، وقد مررت على كل العيادات في المدينة والوظيفة الشاغرة باستمرار هي عاملة نظافة ، هذه المهنة تجعلني أبكي. بإصرار عنيد واظبت في المرور على العيادات ، مستبعدة أي مجال آخر ، لم يركبني عفريت اسمه (عيادة) لكنها حاجة في نفس يعقوب ، واشتغلت أخيراً.

- ماذا ؟!

كل أفراد الأسرة يتساءلون وأنا أقطب الجبين.

- طبيبة في عيادة.

بالتأكيد لم يصدقوا ، لكني رأيتهم غير مستغربين ، قالت أمي:

- مبارك.

أخبرتها مقدار الراتب ، وعندما فرجت أساريرها قلت:

- اشتغلت عاملة نظافة.

ثلاث سنوات أمارس مهنتي بتذمر ، كل ثلاثة أشهر أترك مكان عملي لأنتقل إلى عيادة جديدة.

مررت بمعظمها بحثاً عن (حاجة يعقوب) ، نلت الثناء ثم خفة الأيدي وزيادة في الأجر ، لكنها زهيدة.

توسمت إن الخير قادم ، وإن الفرح آت ، وإن الفارس لا محالة يمتطي حصانه وسيقدم ، سينقذني مما أنا فيه. عششت الأحلام

وكبرت ولم تعد الوظيفة تناسبني.

طردت نفسي بعد مشادة مفتعلة مع ممرضة جميلة ، وقد رفضت تأدية خدمة لها وادعيت أنها تبتزني. صدقني المدير وأمام بكاء الفتاة قررت في اليوم التالي أن أبتزها أنا فعلاً ، وافقت طوعاً.

- علميني الإسعافات الاولية وحقن الإبر.

لم أعد إلى مكان عملي ، طوال شهرين واظبت على زيادرة الصديقة الجديدة في بيتها لأتعلم.

أحتفظ بذكراها وأعتز بمعروفها ، أقمت لها حفلة عندما أنتقل عملها إلى المجمع الصحي. أزورها كل صباح وكل يوم تستقبلني بلازمتها الودودة:

- أهلاً بالزميلة.

بعد انقطاع شهر قررت المرور بها وأيضاً رؤية الطبيب ، الذي وبخت من أجله. ككل صباح أخرج نشطة ونضرة وزدتها هذا الصباح ببعض المساحيق الخفيفة فوق وجهي. شعرت بإني أحتاج اليوم لمن يطرئ على حسني. أنا مثل مئات الفتيات عادية الجمال ومقبولة.

- أبداً ، لك سحرك الخاص.

أسمعها من صبي الجامع الذي يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة ،

- هل تتغزل بأختك؟؟

يؤطر وجهه الحياء ، أطبع قبلة فوق رأسه ، أدس مصروفاً في جيب بنطاله وأخرج ، متوجهة صوب المجمع.

منذ مدة وأنا أشكو من حرقة في أطرافي ، أشعر أن ثمة لهيباً يندلع ويبدأ في السريان باتجاه أطراف الأصابع ، حتى إني أجدها مخدرة من شدة السخونة ، في البداية لم أعرها اهتماماً اذ توهمت إنها من رضوض رقدتي الليلية ، بيد إنها التهبت في الأيام الأخيرة.

أنا أصلاً أشكو من فقر دم مزمن ، رافقني منذ اندلاع أول دورة شهرية ، لقد نزفت حتى خيل لأمي أني تفصدت ، أتعاطى الأدوية باستمرار دون أن يفارق وجهي الشحوب ، الأدوية خلقت لي بقعة سوداء في عجيزتي ، كانت أختاي تتندران من شكلها المضحك ، في الآخر استقرت على هيئة وجه رجل ، وتقسم ((سالمة الكبرى)) إن رجلاً يسكن قفاي ، أنساها دائماً ، لم تشكل عائقاً في ذهني ما دامت صدفة لم تكشف بعد عن محارتها. الأطباء ينصحون وأنا لا أبالي ، قررت اليوم أن أحسم أمراضي باستشارة الطبيب الجديد في المجمع.

دلفت مسرعة ، أتخبأ عن صاحباتي لأصل غرفة الكشف ، استقبلني بترحاب جم ، دردش معي في شؤون شتى حتى عرج على سؤال:

- ماذا تعني (صناعة المرض)؟

إذن أنا من الصيت الواسع ، لهذا طرح سؤاله ، مددت له ابتسامة عريضة فتقبلها بأسارير منشرحة ، عاجلته كاشفة عن طرف ساقي أشكو له الحرقة. نهض متعثراً ، استقام فاقترب لكن صوته اختنق ، تفحص بتأن وأمطرني باستفسارات ، في الحقيقة أجده

راغباً بأن أكشف له عن طرف الكتف ، تملصت بنهوضي عن كرسي الكشف ، أدرك أن تلعثمه استبان فاتخذ جلسة وقورة وراح يشرح لي حالتي المرضية ، عرج أيضاً على شحوب الوجه وطالبني بإلحاح في ثناياه رجاء خاص بأن أواظب على الدواء.

صرت مستعدة للخروج حينما باغتني بسؤال:

- لم بشرتك سمراء؟ وأختك بيضاء.

توقفت ، لم أفكر طويلاً ، قلت له:

- أنا بنت البطة السوداء.

ضحك من بديهيتي السريعة ، رجعت غاضبة ، انتابتني مشاعر شتى ، عصفت بي ، وجدت كرسياً لأستريح ، أرى الناس حوالي يتحركون وأنا ساكنة انقب في كلام الطبيب.

ليس ما أفزعني سمرة بشرتي إنما مرور أختي عليه.

من حقها أن تسعى ، أقنعت نفسي بأنها تكاد تمزق شرنقتها لتخرج ، في داخلي فرحت لكن الكآبة ظلت تحاصرني.

ـ وماذا؟ طبيب وشطب من الطوابير.

ثمة شيء خفي يثيرني من الداخل ، لا أعرف كنهه ، لكنه يحفر قلبي ، استعذت بالله وقمت أبحث عن تسلية مع الصديقات ، كن يتكومن في غرفة ضيقة وإحداهن تبدأ بنكتة فاحشة ، من آخرها عرفت أولها ، ضحكت معهن ملء أشداقي ، سألت عن طرفة أشد وقعاً فبادرت إحداهن مسرعة ترويها ، ضحكن سوية واعتبرن مشاركتي إياهن هذه الأحاديث بادرة طيبة ، قبلتهن الواحدة تلو

الأخرى وأنا أهم بالخروج ، الزميلة أصرت أن تتمشى معي إلى مقر عملي.

نتف من مواضيع شتى نتجاذبها ، أشعر بطيبتها.

- هل تذكرين؟ أنا من أقترحت عليك دراسة التمريض.

- فعلاً.

منذ سبع سنوات خلت غادرت بيتها وكلي إصرار ، ذهبت إلى معهد خاص ، يقبع في ركن منسي لسوق يعج بالبضائع والرواد ، قطعت المسافة نحوه هرولة خوف أن تتبخر الفكرة من رأسي وأعدل عنها ، عرفت المكان ما إن وصفه لي أحد الباعة.

وجدت بعض الطالبات يتجمهرن في ركن ساحة ترابية ويافطة تؤشر إلى غرفة الإدارة ، لم يكن صعباً الإنتساب إلى معهد التمريض مادمت قادرة على دفع الأقساط ، وبعملية حسابية وجدت أن المبلغ المطلوب لدراسة أربع سنوات سيكلفني الكثير ، لكني لم أتوانا. خرجت منشرحة وفي الطريق قافلة نحو البيت ، أجريت جرداً حتى أوفر ثمن الدراسة ولا يتأثر إيرادي الشهري للعائلة ، لم أكن أملك وظيفة أيامها ، استندت على إطراء الزميلة عندما ودعتني بعد شهرين من التعلم على يديها:

- الآن أنت تتقنين حقن الإبر.

بشهادتها هذه ابتدأت مشوار التمريض ، صرت أحمل حقيبة تحتوي على الضروري للإسعافات الأولية ، أدخل البيوت مرحباً بي وكأني طبيبة تعاين مرضاها. زاد دخلي بكثير عن مصروفاتي ،

دفعني ذلك لأن أرتاد الشارع وأتبضع وأبدأ عقد الصداقات.

بعد خروجي اليومي من المعهد أمضي ساعتين بالمرور على المرضى ، كانوا في البداية قلة ، عدد محدود من البيوت فتحت أبوابها للممرضة ، صرت كأني أحد أفراد أسرهم ، زادت الثقة بي وكثر العدد.

لم يشكل المعهد هماً أبداً ، صحيح واجهت صعوبة في الإنتظام في الصفوف والجلوس قانطة مدة ساعة لكل درس. لكني اعتدت الصبر ، ثم تقبلني المدرسون برحابة صدر بعدها شهدوا مهارة يدي في المهنة ، صرت جزءاً من الكادر التدريسي.

يعيبني شيء ، حاولت إخفاءه عن الأنظار ، حتى تتعزز الثقة وأكتسب الشهادة ، تلك الوريقة الملعونة التي ستنقلني من عاملة نظافة إلى فتاة تحمل حقيبة وتدخل البيوت من أوسع الأبواب ، مرت السنوات دون أن يفطن أحد للعيب ، حتى تواجهت به نهاية السنة الثالثة ، أثناء أداء الإمتحان وجدت صعوبة في الدروس النظرية ، ماهرة جداً في أصابعي لكني أغلق عقلي عن الدروس. وشعرت أن لا مناص من مواجهة الحقيقة.

- لن أنال الشهادة اللعينة.

الطالبات يؤدين الإمتحان وأنا أمحص فكري في المعضلة ، عندما سلمت ورقة الإمتحان اهتديت إلى الفكرة ، كانت مثل طيف ، مرت بسرعة وتشبثت بها بسرعة.

- صناعة المرض.

هذه الصفة التي أجيدها باتقان ، وستكون البقرة الحلوب التي تعطيني المؤونة الشهرية والبداية لمشوار حياتي.

أمضيت العام الأخير للمعهد في إعداد الخطط والكراسات الخاصة بهذه المهنة ، لم أجد صعوبة تذكر ، ولم تحيرني (الشهادة اللعينة) فقد زورت وريقة من المعهد ، وتخرجت من قبل انتهاء مدته.

ارتعبت عندما قدمت الشهادة إلى الأهل.

بخطى واثقة تجاوزت المحنة بعدما ذاع صيتي في منطقة الهضبة كلها ، بأني الممرضة الموهوبة والمحبوبة جداً والشافية بإذن الله.

محوت بالتمام والكمال وللأبد من ذاكرتي موضوع التزوير ، عند باب الدار صحت بصوت عانس ، يلعلع فيملأ الأرجاء ضجيجاً:

- يا... ، يا ذات البشرة البيضاء.

انفجر غيظي وأنا أطرق الباب بعنف ، لم يكن ثمة مبرر لهذه الضجة ، أنا أفتعلها لأنفس عن غضبي المكبوت منذ صباح الطبيب المزعج ، تطافر الأهل وكأن الزوبعة قادمة لا محال ، سمعت الأبواب توصد وفسحة البيت خالية ، في مثل هذا الوقت يخرج أبي من قراءة القرآن عادة ، وصبي الجامع حاضر ويستعد لإلقاء دروسه في الفناء الخلفي ، الأم انتهت من إعداد الطعام والأختان على وشك ترتيب مائدة الغداء.

سرحت نفسي إلى السرير ، رفست بعض الأواني النحاسية

وعندما لم أجد استجابة من أحد خلعت ملابسي استعداداً لقيلولة الظهر ، بعد لحظات ، والغرفة مظلمة ، عبثت بالضوء المتسرب قسراً من الثقوب ، رويداً رويداً استعدت مزاجي الرائق ، فكرت في المصالحة مع أهلي لكنني أجلتها لما بعد العصر.

لم أغفو ولم أنم ولم تراودني الأحلام ، مستلقية في فراشي أفكر بالفراغ الذي يطوي الغرفة. نصف ساعة فطلبت النوم ، لكنه استعصى ، تخيلت بعضاً من رغباتي فلم أستقر على صورة ، تمر مشوشة ويشوبها عدم التركيز ، قلت:

- من الأفضل أن أعدد طموحاتي.

أيضاً هربت الصور من مخيلتي. أنى لي طرد هذا الخواء؟؟ ، مررت يدي فوق جسدي ، سرحت بطوله وعرضه ، جلبت الإنتعاش ثم استقرت تتدفأ تحت منطقة السروال ، هاجتني ردة الفعل السريعة اذ نبض جسدي مستعداً لواحدة من حفلاته الليلية ، استلقيت على الجنب فهدأت الزوبعة ، كان سروالي الداخلي بيدي ، لقد انتزعته قبل استدارتي.

- ما أجمله.

تبسمت ، قهقهت بصوت خافت ، وضعته أمام شقوق الضوء فرسم ظله أشكالاً فوق الجدار.

- آه منك ، أيها الفارس متى تأتي؟؟

ليس ثمة لوعة أو قهر ، هي رغبة بفرح قادم ، السروال جديد ، ارتديته اليوم بعدما وصل طرد الملابس أمس. أطالع ألوانه وقصته

الجانبية الضيقة ولا أعجب من حسن الإختيار.

- لك ذوق ، أيها الشهاب.

جاء في الطرد ثلاث قطع وثلاث حمالات صدر ، في كل مرة أستلم الرسالة أجد العدد مختلفاً كما الألوان والموديلات ، الثابت فقط هو موعد الوصول ، تنصرم ثلاثة أشهر فيأتي الطرد الجديد ، عشر سنوات توالت فيها الطرود ، وكالعادة أجد ملابس داخلية فقط دون سواها ، حاولت جاهدة ، حتى عييت ، ولم أعرف المرسل. كل بحثي وصل إلى معلومة واحدة:

- إن الطرد مرسل من داخل مدينة (أويا).

يومها خمنت ، وأتمنى أن يكون فعلاً ذلك الشهاب الذي مرق فجأة أمامي ، خلف الفندق الكبير ، وكنت متجهة صوب سوق (الترك) لأشتري حاجيات حفلة ميلادي الأولى.

دربني ذوقه واختياره بأن أتعود الأناقة في اقتناء بقية ملابسي ، في الأيام الأولى لوصول الطرد الأول استعنت بصديقة لكني لاحقاً صرت أشتري بمفردي ، أتجول مرات عدة.

- هل يعجبه هذا الموديل أم ذاك؟.

أطرح السؤال على نفسي وأجيب ، حتى رسخ في وجداني إن ذوقي تطور فعلاً.

هيامي وراء الملابس الداخلية وفرحي باكتناز السر غير المرئي جعلاني خيلاء في مشيتي وتجوالي.

كل البنات يمتلكن الملابس الداخلية ، أنا المميزة المنفردة عنهن ،

تأتيني بطرد ويختارها لي رجل لا أعرفه ، ذاك سري ، ما أجمله ، وما أحلاني من فتاة مختارة ، إنها صدفة عجيبة أن يحدث لي ما أتمناه ، عقدتي الأولى من الملابس الداخلية صيرها الزمن لي عشقاً وسراً دفيناً.

- هل تتوهج جمرتاي الآن؟

على وقع الذكرى الحلوة غفوت ساعات طوالاً ونسيت إن أهلي في (حيص وبيص) منذ الظهيرة.

استيقظت من عالم الأخيلة الجميلة على وقع خطوات أختي الكبرى وهي تحمل الطعام ، لم يقرصني الجوع ، لكم أنا سعيدة بعالمي الخاص ، يقويني ويمد من نسغي وأعتاشه ، أركن على جرفه أتعاب يومي وأدخل بحره غارقة في صفائه ، ومسرورة لوداعته ، به أعيد توازني وأصفو من أيما شائبة.

دفعت الطعام أمامي صامتة ، لكنها بعد حين قبلت جبيني.

- إهدئي. أنت أختنا العزيزة.

سرتني مودتها.

- نحن نكن لك المودة والتقدير ، ما الذي حصل؟

- اسألي أختك. ماذا تفعل في المجمع؟

- حرام عليك ، لا تكوني مفترية.

كأنها تنسحب ، عند ظلفة الباب أضافت:

- تشكو من اضطراب دورتها.

صفاء ذهني حدا بي أن ألتهم الطعام بتلذذ ، كنت أتذوقه وأشم

رائحته ثم أدفعه إلى فمي ، ثمة عناية فائقة اكتنفت إعداده وطبخه ، شعرت بالإمتنان لأمي.

عندما فرغت تمددت كسلى فوق السرير ، شبعى بلى ومنتشية وكأن دماً زاخراً يسيل في عروقي. رفعت يدي أتفحص أطراف الأصابع ، ليس ثمة شكوى في جسدي ، لتوي خرجت من عالم أحلامي.

لا أرغب ثانية في النوم فقد شبعت ، ولا أريد أن تفارقني النشوة ، أغمض عيني أمسك بها ، أشعر بدبيب أمي ، حسبتني نائمة فانسلت خارجة ، لم أكن أنوي إفساد فرحتي رغم شعوري بأن صدر أمي يزيدني طراوة.

دخلت الأخت الكبرى آوية إلى فراشها ، الأخت الوسطى لم تذهب إلى سريرها مباشرة ، دنت مني ، أسمعها تطبع قبلة في الهواء ، تمنيت لحظتها أن تلاصق جلدي ، ذهبت قليلاً ثم عادت ، حطت قبلتها فوق خدي ، شعرت بالزهو من صحة تخميني. لامست أطراف كفها.

- هل أنت يقظة؟

لم تتلق إجابة فانسحبت إلى فراشها ، من رقدتهما وحلول الظلام الكلي في الغرفة قدرت أن الليل قد انتصف.

بمنتهى الحرص ربطت ساقي إلى السرير وقمطت جسمي بالغطاء ولم أترك مجالاً لأي من عراك الليالي ، أنا أنوي الاحتفاظ بفرحتي حتى الصباح ما دمت غير راغبة في النوم.

سمعت صوتاً يناديني. قلت:

- نامي.

الثانية نادت أيضاً ، فلم أحر جواباً.

- نامي.

احترمتا رغبتي ولم تحركا ساكناً ، لفني الظلام ، أنا الملفوفة مثل زهرة (الخس) أمضيت ليلة هانئة.

عند انبلاج الصبح استحممت وتعطرت وارتديت ملابس جديدة ، أوشك أن أعد فطوري عندما رأيت أخا الحشيشة يدخل إلى البيت ، تأففت ولم أرد تحيته. لا أريد أن أبدأ صباحي بكآبة متحجرة على هيئة بشرية متسخة.

كأنه يتهيأ للعراك فدفعت به قسراً إلى الحمام. تركته هناك عائدة إلى فطوري ، مضت مدة ولم أسمع خرير الماء ، دفعت الباب بقوة ، كان نائماً في حوض(الدوش).

- يالهذا الصباح.

جردته من ملابسه وفركت جسمه ، كلت يداي من التعب ، رائحته النتنة لم تجعلني أراعي كبر سنه أو رؤية عريه ، كنت راغبة فعلاً بجليه من القذارة. ، لما شتمته صحا على عريه ، طالباً صارخاً بخروجي. أنفت نفسي الفطور ، وضعت رأسي فوق كفي استعداداً للبكاء.

- سأعد الفطور لك من جديد.

نظيفاً ، مبتسماً ، أرى أخي الكبير يتحرك في المطبخ. ظل

يلقمني الطعام ، كما كان يفعل ونحن صغار ، أفراخ بطة لم تدخل القن ولم تبدأ الخصومات بعد ، ضحكنا سوية وأعدنا شريط الذكريات ، كنت فرحة بأن أرى أخي بعد زمن موغل بالقدم.

- سبحان الذي أوحى إلى نوح.

وجلس صبي الجامع يغني:

- سكرة الموت ما أرى ، أم أرى جذوة الحياة؟!

داعبت شعره فرحة بصبي صار شاباً ، طلبت منه أن يغير اسمه:

- ماذا؟ (عليوة) حلو.

- وهل (عليوة) يتناسب مع طالب في كلية الحقوق؟

- أتريدينني أن أحذو حذوك؟

هو يلمح علانية إلى ما فعلت من سنوات ، كانت العائلة تجتمع على الغداء جلست مسرعة ألتهم طعامي. وعندما شبعت أخبرتهم بتغيير اسمي ، تعالت أصواتهم مستنكرة ومستغربة. فرميت لهم ورقة الإنتساب إلى معهد التمريض ، تشاغلوا بهذا الأمر ونسوا الاسم ، فأضحيت ممرضة باسم وأختاً باسم.

- لا تتخابث!! غيره وسأزيد مصروفك.

قرص خدي بمحبة وانصرف ، تعالى صوت أبي يرتل سورة (يس) وهو موعد انصرافي قبل الثامنة ، كل يوم يصون الأب البيت بهذه التلاوة ، أنا اعتبرها إيذاناً بانطلاقي الصباحي.

اليوم وعلى غير العادة اخترت كرسياً وجلست أتدفأ بأشعة الشمس في فسحة الدار. شيئاً فشيئاً تسرب الدفء إلى جسدي ثم

خدرني كسلي في مكاني ساعتين.

من في البيت لم يلاحظوا وجودي ، في غالب ظنهم إني غادرت إلى عملي ، أسمع قرقعات الصحون وبعضاً من سيرتي يلوكون ، بهمس غير مسموع أو بصوت عال يذكرون جرأتي بغسل الأخ الأكبر.

- كإني غريبة عنهم.

ناديت أجعر بصوت كالدوي ، بعض الصحون أكيد تهشمت من هول المفاجأة ، لم يحدث هذا ومنذ عشر سنوات ، إن الأخت الصغرى في صباح ما كانت في البيت.

- صوت عفريت. لا. صوتها.

نحو البوابة يتدافعون ، تحلقوا حول الكرسي ، الشال يغطي وجهي ويخفق مع تنفسي ، من خلف الحجاب طلبت من الأختين التهيء للخروج سوية ، ذهب الجوق بعيداً وانتظرت قليلاً.

خرجنا نحن الأخوات الثلاث فاصطدمنا بجارة تسكن البيت الأول.

- بسم الله الرحمن الرحيم.

كأن ثلاث جنيات أحطن بها ، ولت هاربة وصفقت بابها بقوة. أشّرت لسيارة أجرة ، الأختان في الخلف وأنا أجلس في الأمام. تهامسا فصلبت نظري عليهما ، أطبق الصمت وسارت السيارة نحو الفندق الكبير ، لم أتطلع ولم أنبس ببنت شفة ولم أرمش ، تمثال صامت صعد وهبط خلف الفندق.

ترجلنا معاً ، واجتزنا الشارع ، عند أول زقاق ضيق ، دخلت مقهى واسعة ، الأختان كالظل يمشي ورائي ، اتخذت طاولة منزوية ثم أبعدنا النادل عن الأنظار بعدما وضع ساتراً خشبياً مطرزاً برسوم صينية.

لم تفتحا فاههما بعد ، طلبت شاياً وقطع حلوى وشراباً حلواً. انسحب النادل بأدب جم ، عيون الرواد عادت تثرثر ونسوا أمر الأخوات الثلاث المتواريات خلف الستار.

كل عام ، مرة واحدة آتي لهذا المقهى ، منذ عشر سنين ثمة ارتباك واضح في وجههما ، هل تستجمعان ذكرى معينة ، انتظرت كثيراً وخاب ظني.

- اليوم ذكرى ميلادي.

ببرود وحزن قلتها ، علت الدهشة الوجهين. أنا واثقة إن إحداهما عضت إصبعها: -

- أسفة ، حقاً ، كان المفروض أن نباركك منذ الصباح.

ثمة خجل حقيقي يغلف المشاعر ، إنبريت:

- أول مرة ارتدت هذه المقهى كان يوماً مشهوداً.

تتكون المقهى من صالة مربعة في المقدمة ثم ركن ضيق ومستطيل ، في آخره يقع مطبخ صغير ، أمام الطاولات السبع يقف النادل خلف أنضاد من الكؤوس وماكنة القهوة ، النادل لهذا اليوم هو نفسه الذي رأيته العام الماضي ، قد يكون لحني لكنه رحب بنا بشوشاً ، جرى نحونا أكثر من مرة يسأل:

- أي خدمة ، أنا حاضر؟؟

استلطفت عمله لكن الأختين تضايقتا ، كنا نتحدث في شؤون شتى ، انصرم الوقت لما بعد الظهر فأعلنت:

- هيا نشتري حاجيات حفلة الميلاد.

سلكت نفس الدرب الذي اقتفيته في المرة الأولى ، كنا نسرح أنفسنا باتجاه المدينة القديمة.

طلبت أن تتبضعا حاجاتهما إن كانتا راغبتين ، شعرتا إن الكرم يغدق عليهما فتعففتا فعلاً ، اضطرني الأمر إلى أن أنتقي لهما بنفسي. لم يكن المال حاجزاً عن رغبتي بقضاء وقت سعيد ، برفقة الأختين واسترجاع ذكرى قديمة.

تحملنا بأكياس كثيرة وقفلنا راجعين إلى البيت ، كان الوقت جاوز العصر ، أمّنا مرعوبة أولاً وفرحة ثانياً تستقبلنا عند الباب ، انكفأت على هديتها بعض الوقت وعادت ترتدي جلباباً جميلاً.

- لو كان لونه بدون هذه الخطوط.

توقف اعتراضها بعدما قبلتها.

انصرفت النسوة الثلاث وبقيادة الأخ الأصغر بدءا الإعداد لحفلة المساء.

الحفلة التي اجتمع أفراد الأسرة جميعاً فيها وتحلقوا حول (تورتة) والأكل منثور بعرض الطاولة أعلنت المفاجأة فيها ، ابتدأها عليوة:

- قبلت في كلية الفلسفة.

بين مهلل والتقاط الأنفاس أعلن الأخ الأوسط:

- لقد نقلوني إلى الإذاعة.

بعض من صفق له ، وبعض من بوغت ، أنا رميت طرقتي:

- عبد اللطيف.. وجدت له عملاً في محل ألبان.

كانت المفاجأة بحجم الزلزال.. أعطيت الوقت الكافي لاسترداد الأنفاس.

- سالمة الوسطى ستشتغل (مزينة) نساء.

فغر فاهها ، ونسيته هكذا..

- خياطة أنت.. يا سالمة الكبرى.

لم يكن في جعبتي أكثر من هذا.. رأيت الوجوه تهنئ بعضها.. أنا صرت أتنقل من حضن لآخر والقبل مثل المطر تتساقط.

هل رست سفينة العائلة في مستقرها؟ لا أعتقد ذلك ، فثمة لوثة قديمة ، منسية ، لكنها متأصلة ، تقود الخطى.

الأب استشعر الخطر فنهض إلى قرآنه ، انكب طوال الحفلة صامتاً ، عندما قبلني لم يلصقني إلى حضنه ، كانت ضلوعه ترتجف ، أحن إليه وأوده لكنني أخاف من قراءته لـ(يس) ثمة من ينبئه إن الطوفان قادم لا محالة.. شيعته وهو يغادرنا بلطف ، ما زالت الحفلة في أوجها ، أنا أججتها برقصي ، تصاعدت حرارة الجمرتان فتلوى جسدي ، بضاً وغضاً وطرياً ، أعشق الرقص ، هيام وعلوة وفتنة تتصاعد مع نسغي وتنبض في العروق.

هذا اليوم أقف عند مفترق الجامع ، الشارع الرئيسي يمتد فسيحاً

أمامي ، أطالع صفي الدكاكين وأعيد ذكرى.

هلموا. تعالوا أيها الفتية ، البنت تمر أمامكم. من يتغزل ومن يطري؟ ، كنت أبحث عمن ينتبه إلى البنت الخجولة ، مرتبكة أهرب من الزمر ، أتصفح وجوهكم عل أحدكم يطريني بكلمة. كأني مهملة ، خارجة من جحر جرذان.

مرت بكم الأيام ومرت بي تقوى شوكتي ، أن تروني عاملة نظافة !! ، ومرتبكة عندما كنت أحقن أول إبرة !!.

الآن صرت فتاتكم المنتقاة ، مختارة الأحياء القريبة والبعيدة ، أدخل ما أشاء من البيوت وأصطفي ما أشاء من الشبان لمغازلتي وأرد من يتجاسر ، أدلف المقاهي دون وجل ، ما عدت أتأطر بالحياء ، لقد كشفت عن الأبدان لأزق الإبرة أو ظهراً لأداوي جرح موس أو ثلمة حديد مزق العضلات.

- من يختارني اليوم بكلمات ناعمة؟

أنا أدخل النفق فهلمي أيتها الأفواج ، سيدة الغنج قادمة ، من وراء ظلف النوافذ لا تنتظروا ، أنا حاضرة في عرض المسرح ، أتوهج بحلة جديدة وترصعني جمرتان ، تتقدان لضوء الشمس.

مَنْ مِنَ الأحياء لم أدخل دوره؟ مَنْ مِنَ البيوت لم يفرش مائدة استقبال؟ أنا المداواة وبلسم الجرح المفتوح ، أريد أن أريكم غنجي اليوم وأريد معزتي ، لا أنتظر الطوابير اليوم في العيادة ، بل آتية إليكم في حضن تجمعكم.

هل أخذت بيدكم؟؟ ، عرفتكم بدلال الأنثى وحزم الفتاة الجريئة

التي لم تتوان أبداً حتى في الليالي المظلمة تحمل حقيبتها وتسعف المرضى. فرطت بصحتها في سبيل مودتكم.

أنا الآن أضع أولى خطواتي في الشارع ، لنقيم مهرجاناً على الرصيفين ، نقطع السير ونغني لفتاة تبحث عن وظيفة ، مكسورة الخاطر تعود خالية الوفاض ، تبكي سراً من مهنة غير لائقة ، وتتوسل في العيون لمن يمد لها يد العون. الجوع يقرص عائلتها التي تتدثر بخرافة بالية ، لا تعيبوا عليها إخوتها فكل شاة تعلق من كراعها ، هي بينكم كما هي ، تجاوزت السن القانوني فخرجت من محارتها ، ناضجة ومرتوية ، لها جسد بض وسمرة عتقها نضج التمر ، قدماها صغيران ويطيران في الهواء ، لها ساقان تمتدان كسندان البلوط ورقبة من مرمر.

الرجاء في وجهها ووجهتها أن تفلح ، تعبت وأضناها السهر ، وها هي اليوم تريد دلالها.

- يا الله ما أحلاك.

بادرة خير ، من غلام يأتي الغزل ، أجتازه دون اكتراث ، ثلاث خطوات وأكون أمام المقهى. تدافع الشبان مرحبين ، انهالت أمامي العطايا ، أشرب عصيراً محلى ، أقضم ثلمة صغيرة من كعك محلي ، تودعني الأيدي وآخرون يجرون خلفي ، بائع الأحذية هش الذباب عن باب محله ، حلف لأن أدخل وأنتقي ما أشاء ، ثلة شباب نهضوا يقدمون خدماتهم ، زرعت لهم ابتسامة وذهبت ، اصطدمت عند الانعطافة مع أحد ، تدافع الفتيان يودون ضربه ، لم

يجد الرجل غير أن يعض لسانه ، أخذت بيده لينهض. عند الجانب الآخر توهج الجمر ، برق للضوء فالتمع كأنه ماسة.

- يا لهذه النار الحارقة.

ابتسم للغزل الجميل من شاب جميل ، لم أتوقف ، طابور عند بائع الخضروات تجمع ، كفراشة تحيط بها الأكف ، انساب علي أصوات متداخلة ، مثل صوت موسيقى يهزني طرباً.

علي أن أتجنب اليوم المجمع الصحي ، فنفسي منشرحة لعيون متلهفة. من خلف سيارة حمل مررت ، ثمة متسع من مائة متر لأصل العيادة ، بعض الفتيات يثرثرن أمام السيارة ، قلن همساً كثيراً وعلقت منه كلمة واحدة.

- طافحة.

إنها غزل البنات ، ثناء مشوب بغضب ، زرعت ابتسامة ومررت ، بانت الزميلة قادمة من العيادة ، إذن انتهى المهرجان وحان وقت العمل ، هششت بها مرحبة في الأحضان.

- كنت أبحثُ عنك.

- خير ، إن شاء الله.

كمن تودعني سراً وشوشت في الأذن ، ذهبت ضاحكة وأصابعها ترسم التحية.. ، أنا مبهورة ، كصنم واقف ، مما أسرتني ، لم تمهلني لحظة كي أتأكد من قولها.

دارت كلماتها في ذهني ، لقد اختلط الحابل بالنابل ، ولم أعد قادرة على إتيان حركة.

مرت بي امرأة عجوز ، اعتدت زقها الأنسولين.

- ماذا بك يا ابنتي؟

لم أجب ، هزت بدني ولم أجب ، هزت يدها مستغربة وذهبت ، هل الدهر لحظات أم عمر مديد؟

لا أعرف ، كل الذي أتذكره إني جلست فوق الرصيف واضعة رأسي بين يدي ، ثم بعد لحظات بدأت ألعب برمل الشارع ، أرسم وجوهاً وأبني بيوتاً وأحفر مجرى بعمق أصابعي ، مذهولة أفز من يد ترفعني عن الأرض ، كانت الزميلة ، شلة من الممرضات هرولن من المجمع صوبي. إحداهن أسندت طولي والزميلة تقرب عطراً منعشاً من خياشيمي ، أفقت من الذهول ، بادرت أخرى بمسح الدموع ، برفق عن خدي تنزل القطرات.

- هل كنت أبكي؟؟

اتكأت على الزميلة ، حملتني إلى العيادة ، انفضت شلة الممرضات ، ندخل سوية ، سارعت العاملة تقدم كرسياً ، أنا فضلت الغرفة الأخيرة ، أجلست الزميلة قبالتي لأتحقق من الأمر.

- ماذا قلت؟!

- أقسم بالله هذا ما حدث ، رجل غريب جاء يسأل عن عنوان العيادة.

سارعت متلهفة:

- وماذا بعد؟

- قال إنه طبيب مغترب ويبحث عن عمل ، فجلبته إلى هنا.

- ثم ماذا؟

- سألني إن كان بريد الهضبة يقع في نفس الشارع.

- أكملي!!

- لا شيء ، أودعته العيادة وشاهدتك في الشارع.

أنا غير مصدقة ما يقال ، ثمة تكملة لهذه الرواية ولا بد ، إلى باب الغرفة أصرخ منادية (عائشة) ، جاءت الفتاة الزنجية مهرولة ، وقفت مدهوشة ، كأن جناية ارتكبت ، لم تتفوه ، حائرة بيننا.

- أين الطبيب الذي جلبته لتوي؟

- ذهب؟؟

- ماذا؟؟

نصرخ نحن الإثنتين معاً ، الفتاة امتقع لونها وهرب دمها.

- بلى ، تفرج على العيادة ، طالع الغرف جميعاً ، كان يهدل كتفيه ثم سألني عمن يشتغل هنا.

- أيه.أيه. ثم ماذا؟

ذكرت له كل الأسماء ، الأطباء ، والممرضات وحتى اسمي أوردته.

- لماذا خرج؟ ماذا قال؟

تخاف كأن قنبلة ستنفجر. سألتها وأنا خائفة مثلها.

- هل ذكرت اسمي أيضاً؟؟

- نعم ، أنت كنت الأخيرة ، تصورت إنك الحلاوة التي تطري قائمة الأسماء.

توقفت ، تلتقط أنفاسها ، كان جسمها يرتعش في البداية ، هو الآن قد هدأ ، تكمل أخر ما في جعبتها:

- قال لي وهو يهم بالخروج (عيادة الخشب هذه لا تناسبني).

أنا الواقفة طوال هذه المحادثة والصابرة قسراً على تحصيل خاتمتها سقطت أرضاً مغمى علي ، ولأربعة أشهر قادمة يلفني الذهول ، أقضيها تحت العناية الطبية.

# ٢ـ اللقاء الثاني

- هل ثمة تغيير يطرأ على حياتي؟

بتلقائية تنساب الثياب فوق جسدي ، كالمعتاد في مثل هذا الوقت كل يوم أرتدي ملابسي متهيئة للذهاب إلى العمل ، قميص قطني أسود ترصع ياقته فراشة نحاسية وخمسة أزرار ، أطوي ذيله تحت تنورة وردية اللون ، ضيقة عند الورك لكنها تتسع تدريجياً حتى تبدو أشبه بالجبة عند القدمين ، نادراً ما ارتديت نطاقاً ذاك إن انحدار الخصر فوق الوركين يبدو كفاصل.

خرجت من البيت وأنا لا ألوي أيما جديد ، الرتابة اليومية تجعلني أحفظ عن ظهر قلب عدد الخطوات وتعرجات الطريق ، حتى الدكاكين على جنبي الشارع باتت مألوفة ، فأنا أمرق صباحاً وظهراً عائدة أمشي بتثاقل. عند خروجي أبدو نشطة كنضارة الصباح ، علّ إشراقة جديدة تطل في حياتي.

لقد ألفت الحي والشارع والوجوه ورغم إن إثاره تتخلل مرات مشوار السير لكنها أيضاً اعتدتها ، وصارت مألوفة. نشاطي يزداد وتيرة كلما مر الوقت ، ففي الساعات الأولى يتقاطر المراجعون على

مقر العمل ، ثم يكبر العدد. البعض يمر لإلقاء التحية والآخر يتفوه بغزل سمج.

أنا اليوم أعد نفسي لشيء جديد ، إلا إن احساسي بالرتابة يقتل كل رغبة. عندما قطعت نصف الطريق تذكرت حديثاً دار أمس بين طاقم العمل. لم أكن صاغية بانتباه ولكنني التقطت طرفاً ، بأن ثمة وافداً جديداً سيباشر العمل معنا. لقد مرت هذه اللقطة فيّ مرات عدة وخلال الثلاث سنوات الأخيرة وفي كل مرة لا يلبث الوجه الجديد أن ينضم إلى رتابة المكان ويغدو مألوفاً ، لا يدوم بريقه إلا ساعات ثم يخمد وكأن شيئاً لم يحدث.

لم أؤول كثيراً أمس وحتى ليلاً عندما حاولت تخيل وجهه وهيئته ، فلا بد أن يكون مثل البقية.

كنت أعبر منتصف الطريق حينما أوقفني شاب بسؤال:

- هل الجمر يتوهج هذا الصباح؟

لم أفطن لمداعبته فلقد كان علي الحذر من السيارات المسرعة ، الرصيف الثاني كان أكثر هدوءاً مما أتاح لي فرصة بأن أبتهج قليلاً ، تصورت أن القادم الجديد يحمل الفرح معه. وظبت نفسي على هذا الإبتهاج وشعرت إني سعيدة حالما دلفت إلى البناية.

أمامي تقف شابة زنجية تحمل مكنسة وأسنانا بيضاء ، مطت شفتيها فخرجت الإبتسامة باهتة لكنها صادقة عندما ردت التحية.

- صباح الورد.

دلفت الغرفة المربعة لتنظيف آلاتها. لكنها بعد حين مدت بوزها

عبر الباب منادية:

- لقد جاء الجديد قبلك.

بهتت واستغربت وتجمدت.

- إنها الثامنة بالضبط.

تأكدتُ إن ساعة يدي تعمل. فلم يحصل أبداً إن جاء أحد قبلي ، فأنا أول من يدلف من الكادر الطبي. أمضي الساعة الأولى في ترتيب الأجهزة وتشغيلها عندئذ يدخل المدير يثرثر كثيراً وينجز القليل من الأعمال البائتة ، لا يشرب شاياً أو قهوة لكنه يعلن عن خروجه يومياً عند العاشرة صباحاً.

بعض المراجعين لا يمكثون كثيراً ، أستقبلهم ثم أشيعهم بابتسامة عريضة. يبدأ تقاطر المرضى عند منتصف النهار وعلى هذا فإن الوقت بعد مغادرة المدير يمر مملاً.

اليوم أنتهز الفرصة بعد العاشرة لأن أتعرف على الوافد الجديد.

- عايشة ، سأصعد فوق.

ترد العاملة البوابة وتبقى يقظة للقادمين والخارجين كأنها حارس يرعى الدور الأرضي.

عادةً ما أصعد إلى الأعلى لإتمام بقية عملي اليومي. يستغرق مني ساعة وعند ذاك تكون العيادة جاهزة لاستقبال المرضى.

إحدى عشرة سلمة تصعد مع الحائط ، وأربع أخرى تستدير قائمة لتفضي إلى فسحة الدور الأول. أصعد نشطة وبخفة. عند استدارتي باتجاه الدرج أوقفني صوت العاملة.

- تعرفي عليه.

كنت قد نسيت أمره منذ ساعتين وهو يقبع في الأعلى وحيداً. غرفته يقع بابها مقابل آخر السلم ولها نافذة تطل على شرفة مزدحمة بالمواد.

عندما استدار الدرج خففت من حركتي وبدأت أصعد ببطء وتأن. ربما مهابة أو لعدم إزعاج الوجه الجديد.

أنهيت الدرج وعيناي تراقبان خطواتي. مددت الرجل اليمنى بالخطوة الأولى وعند الثانية رفعت بصري. طالعني بعدما رفع رأسه عن الكتاب. رمقني لثوان ثم عاد يقرأ. تسمرت لدقيقة ثم دفعت قدمي للخطوة الثالثة ، أيضاً رفع نظره عن كتابه ، حدجني بنظرة خاطفة وعاد ليقرأ من جديد. لا أدري إن كانت خطوتي معلقة في الهواء أم هبطت. أسحب نفساً عميقاً ، كأنه يسمعه إذ أبصرني لثانية فقط. لم تتغير جلسته لكني وصلت منتصف الفسحة عندما أطبق الكتاب وقد وضعه إلى جانبه. أنا تسمرت في الفراغ. تحركت يدي اليمنى لتفتح أزراراً خمسة. كانت مرتعشة ثم مضطربة لكنها تواصلت نازلة إلى ذيل القميص القطني.

اليد اليسرى تعين رفيقتها بخلع التنورة ، نزل "السحاب" سريعاً فتكومت تحت قدمي.

أطالعه أم أسأله. عيناه مثبتتان فوق جسدي ، لا تنمان عن تعبير معين فبادرت بانتزاع حمالة الصدر. ارتمت بعيداً عني. إنطلق عصفوران من جسدي ، ينفضان ريشهما ويزغزغان. كان علي أن

أسأله الآن ، أومأت رأسي ، مال نحو اليمين والقادم الجديد أمال رأسه نحو اليسار فعرفت إن ما تبقى من ثيابي لا معنى لبقائه. دسست الأصابع من الجوانب تطوي السروال. فدفعته إلى الأسفل ليمرق أولاً عبر الفخذ الأيسر ثم عبر الفخذ الثاني. تحركت قدماي لجعده فوق بقية الثياب.

أنا الآن عارية ، أقف في المنتصف ، هو نظر نحو الأرض ثم قام. نهضته أشبه بخرير شلال. ارتعشت. جسدي يصفعه تيار هواء بارد. بعد خطوتين أغلق باب الشرفة ثم وجدته قد دنا لحد الملامسة.

وقف أمامي ، تفحصني من قمة الرأس حتى القدمين ، هو صامت ، مشى خطوتين فصار ورائي ، انتظرته دهراً ، لم أره أمامي. وضع القميص أولاً فوق الكتفين ، بدأت أزر فتحاته الخمس. رفع التنورة وحينما ضاقت عند الورك ، شدها بقوة إلى الأعلى فاستقرت في مكانها. لم ألاحظ هندامي ، أراه ينحني ، يلتقط المشد والسروال ، نظر بتمعن ثم طواهما في جيبه ، قبالتي ينتصب كالعمود ، مد أصابعه فأحتضن مرفقي ، قادني نحو السلم ، ولم أقو على الحركة ، جسدي يختض ، لامست كفه تحت الإبط وهبطت تدعك جانبي. كانت رعشة فتحولت إلى موجة ثم أصبحت ناراً تلسع.

كان يهبط السلم وأنا وراءه أستند على ساعده ، كأني أنزل أحد عشر طابقاً نحو قاع الأرض ، السلم بدا مظلماً ، أتحسس نزولي مع كل ضغطة من أصابعه. دهراً ثم وصلت ، العاملة سارعت لفتح البوابة ، مذهولة لكن ابتسامتها هذه المرة حلوة. وصل إلى السيارة

المرتصفة لصق المكان ، فتح الباب وأقعدني بجواره.

دار المحرك بنعومة فانطلقنا ، الشوارع تركض خلفنا ، الأحياء والدور تندغم ألوانها ، وأنا مسمرة في مقعدي ، لا أقوى على التطلع إلا بعينين مأسورتين.

تلفت ثم رفع بصره نحو الأفق ، يطالع السماء ، هل كان تائهاً ويستدل بالنجوم؟

لا أعتقد ذلك ، فكل ما يفعله ينم عن دراية مسبقة ويقين ثابت في نظره.

بعد اجتياز الهضاب انفتح عمق الصحراء أمامنا. بيننا وبين آخر العمران ساعة من السير ، هو الآن يتجه صوب "الحمادة الحمراء" التي تبتدئ منها الصحراء الكبرى.

الدروب التي يسلكها غير معهودة وذرات الرمل تتطاير فوقها مما يمحى أي أثر لأي حياة تكون قد مرت من هنا.

أظنه مغامراً وغريباً عن هذه الارض. بأيما لحظة جائز أن تغرز العجلات في الرمل ونتيه في صحراء مقفرة ، حاولت أن أثير الموضوع بإيماءة يدي لكنه لم يسترع انتباهاً ، واصل الطريق وكأنه محتوم عليه أن يصل العمق ، حيث التيه والضياع.

تطلع إلى معصم يده ، الساعة تشير إلى منتصف النهار فتوقف. فتح الباب وتمطى هواء. نفض بعضاً من كسله ، في مكاني مسمرة أطالع الطود الذي يدور في أرجاء الفلاة.

- حاشا أن يكون طبيباً ، إنه ميكانيك سيارات.

لقد خلع كرسي السيارة الخلفي بخفة. فك بعض البراغي بمهارة ثم حمله إلى الجانب الغربي ، ذهب إلى مؤخرة السيارة ثم عاد نحوي ، أخرجني من مقعدي وأجلسني فوق الكرسي المخلوع والذي حوله إلى سرير. مدني فوقه وذهب إلى الأمام.

أنتظر حركته ، تمطى ورفس ساقيه مرات ، طقطق بعضاً من فقرات رقبته ثم جذعه ، استدار نحوي. كإنه يخثني على الحركة:

- ماذا أفعل؟

أي من رغباتي تنسجم مع رجل يقف في صحراء ويصفعه الرمل بقوة؟ همست بداخلي:

- أنا طوع أمرك في هذه الفلاة المقفرة. أخرجتني من المدينة لتنفرد معي بفضاء واسع. لك المباح وغيره.

دنا. كان يسمع همس ذاتي. رغباتي في جسدي ، أنا متأكدة بأنه سيقطفها بأيما لحظة. دنوه يعادل اختلاط الهواء. فحيح تنفسه رفرفة لجناح طائر.

لما يزل ساكناً. شفتاه تطبقان على الكون فتنام الريح قليلاً. لم يعد ثمة متسع فقد تقلصت المسافة بيننا ، يضيق علي مجرى الهواء فأتنفس زفيره. إنه يعلوني بعض الشيء. وإن وقفت على أطراف أصابعي فلن أصل إلا إلى عنقه ، لكنه دحرج قدميه تحتي فاستطلت قليلاً. جالت عيناي في وجهه. ظل ساهماً يقرأ كل الفصول في لمعة عيني وارتعاشة الشفة.

- لو أخذها الآن سيكون سيدي الأبدي.

لم يفعلها. قدماه تدفعان استطالتي ، صرت بطوله. لوح سبابته باتجاه قرص الشمس ، كأنه يسخنها. ثم رسم نصف قوس على رقبتي ، ابتدأ من أول الكتف الايسر ثم انحنى إلى الأمام صاعداً إلى مهبط الكتف الثاني. كان يلامس الجلد بنعومة ، إنه يداعب خلايا الجلد أو يطبع بصمته فوقها.

مد السبابة في فمه. امتص رحيقها ، بللها ثم ألصقها فوق الحنك. ظلت مستقرة دقائق ، كنت أنتظر حركته التالية. بلل اصبعه ثانية وطبعه فوق تفاحة آدم. إنه ينزل رويداً باتجاه شغاف القلب ، أهلل فرحاً. دس أصابعه العشرة من فوق الكتف إلى أول الظهر. سرت رعشة خاطفة تضرب ردفي ثم فخذي. هو أحس باهتزاز البدن فسارع يقبض على الورك ، كل يد في جانب. ضغط برفق فانكسرت الرعشة هنالك ، أظنه سينحدر إلى الأسفل ليتلمس ساقي ، أفرجت له مسافة بينهما ، لكنه صعد قليلاً وتوقف عن السرة.

أزاح القميص وطبع بصمة فوقها. مد إصبعه أولاً جهة اليمين ، من ثنية القميص القطني إلى أسفل قاع النهد رسم خطاً وبعدها ضغط ، كانت إصبعه تغوص في لحمي. هذه المرة لم يطبع بصمة لكنه حفرها في العمق. في الجانب المقابل غرس أصابعه الخمسة لترسم حدود النهد الايسر ، يرسم دوائر فوق جسدي. جثا على ركبته كي يبدأ في جزئي السفلي. عند أول دائرة شهقت ، متقطعة لكنها مدوية ، رفع رأسه إلي فاستكنت. إنه لا يغازلني الآن بل يرسم حدود معالمه.

- وماذا سيحل بي عندما يبدأ الغزل؟

لا تتاح لي لحظات لأفكر فأنا مدهوشة من الدوائر ، تحدد ملامح وجهه ، يغرس صورته فوق لحمي الحي ولما تبدأ الحميمة بعد.

سأصرخ إن وصل الكهف ، علتي هنالك ومكمن فحيحي ، فيه جمرتان موقدتان باستمرار وتشعان ناراً حارقة.

هو اجتاز المكان دون المرور.

- هل يقرأ صمتي؟

كأن إصبعه يدله على مكامن نبضي ورغباتي.

- ماذا تفعل أيها الجاثي؟

دعك بطة الساق ، أخرجها من مربطها ، تمددت في يده ، أعتصرها فهبطت روحي له. مسد بقية الساق حتى وصل أخمص القدم ، ضغط بقوة مما استدعى قفزي في الهواء ، كنت طائرة فتلقفني بين ذراعيه وفي حضنه لقد ختم على جسدي عالمه ، دوائر وخرائط وجه وشجرة عند نهرين. إنه يدلني على موطنه.

- ماذا؟

فزعت من فكرة أن أضيعه يوماً ، تحولت الحرقة إلى بكاء. قطع تشنجي بأن طبع قبلة فوق الشفتين. إنها الأولى التي يلامسني فيها. كطعم الفراولة سرت في أوصالي ، رطبة ودافئة وشهية. ألم شفتي استجم طعمها. تنزل مع الدم لتعيد الحياة في عروقي. قبلته كانت إذانا بدخول عالمه في ثنايا جسدي.

- ابتدأ الغزل.

ابتسم لعبارتي. ابتعد عني وابتدأ ينزع ملابسه ، لكنه توقف حالما خلع الجاكيت. لم يقل ولم يسأل. كان علي أيضا أن أفعل. بيد إني كنت أفضل أن يفعلها هو.

نزع قميصي ، نزعت قميصه. فتحت بنطاله فكوم تنورتي في الأرض. صرت عارية وهو ما يزال يرتدي جورابه وسرواله.

طرحني أرضا فوق الكرسي المخلوع ، برفق دفعني وأنا متهالكة القوى. مازال واقفا عندما شكلت الشمس قرصاً فضياً فوق رأسه. تنفذ حرارة تتطاير لها الرمل. لم أتعرق بعد لكني أحسست لهيباً فوق جسمي. كان الجلد يتسمر لونه لأشعتها.

كان الوقت ظهراً وأنا أتمدد فوق سرير مصنوع من كرسي نصب في ظل سيارة تقف في وسط صحراء قاحلة. أغمض عيني للقادم من حركته ، كنت أيضاً أقي أشعة الشمس عني ، سحبت الشال من كوة ملابسي وغطيت الوجه ، خفيف و مخرم وشفاف يعينني لأن أراه بوضوح. باعد بين الساقين مسافة ، جعلهما ذراعين ممتدين لاستقباله. نام فوقي ، أنا دون رأسه قليلاً وأقل من أطول كعبيه. إذن هو يفترشني بالتمام. سخنت معدتي لضغط جسمه وبدأت تشع حرارة ، حينما كور نهدي تحت صدره انهال العرق ينز من الجلد. كانا يرفعان صدره قليلاً. شده صلابتهما فمد فمه يعتصرهما. مرة يلحس النهد الأيمن ومرة يغرس أسنانه في الآخر. لم يزل صراخي في أوله ، يرتفع رويداً ، سيملأ الصحراء. ابتدأ بالحلمة. لقمها في فمه. امتصها. هل رحيق أم طعم رمان في ريقه؟

تباطأ لدقائق ولدقائق أخرى هجم عليها يفترسها ، يعض. يعصر. يكور. يدمر. يدمي. الأفق يردد تأوهاتي بصدى أعلى. انحال جلدهما إلى اللون الأبيض ثم تحول إلى الوردي المحتقن. كانا يلتاعان مثل عصفورين تحت أسنانه.

- هما رمانتان.

صرخت به فلم يرد ، كان يتشظى بالحلمة. يأخذها بين شفتيه ، يشفطها رافعاً صدره. يتمطى الثدي معه ويعود غارسا وجهه كله في تكويرته ، يصعد تصعد شهقاتي أنيناً ثم تصير آهات مرافقة مع الهذيان.

- إنك تفدع الرمانتين.

يصيخ السمع ، يتلمض بشفتيه كان يتشرب طعم الرمان ، يمررها بانسياب فيتجعد لحمي له. وحالما يترك فسحة يبدآن بالإرتجاف. لقد اعتدت دفء فمه ، تنط العروق حالما يعصرهما بيده أو يدجهما بأسنانه ، يتحفزان ويمتلئان ويتكوران ويلبطان كعصفورين مبللين. ، لا يتيح فرصة لانتشائهما ، عندما ينزان ويملآن صدري يهجم ، دقيقة لهذا ودقيقة لذاك ، مرات تبعد المسافة بينهما فيثاقل القفز ، يمرر يديه ويكورهما قريبين من بعضهما ، عندها أحس أن أضلاعي تزحف معهما. يمر فمه من الأول ويعتلي الثاني بسهولة ، من يشفطه يبرز أكثر ومن يعصره ينام مسالماً.

- أيهما يطلب أكثر؟

أنا لم أعد أميز اليمين من اليسار ، لقد قربهما وصار الإثنان

عند منتصف الصدر ، النشوة تتصاعد وآهاتي تكبر.

أراه يتلمض شفته فشعرت أن الرمان أفرط حباته الحمراء وإن العصير الحلو المذاق جاء من الهرص وإن ثديي الآن هما شطان لنهر من عصير الرمان.

- ذق ، الآن ، طعمي.

أرى دبيب النشوة يسري في جسمه. أتحسس انتفاض عضلاته فوق جسدي. توسع صدره أولاً ففاض فوقي ثم ازداد ضغط ثقله فوقي ، ساقاه تقبضان على أطرافي فتمنعان ارتجافي.

استكان بعض الوقت بعدما رفع جذعه ، عيناه إلى الأفق ورأسه تدور في فضاء خال.

- هل شبع؟

أرى شفته تترطب شيئاً فشيئاً ، إنه يعيد تكوين أيضه بطعم الحلاوة.

كان يصلي فرحة في أفق واسع وتحته امرأة تنادي شبقاً قادماً. استحال المارد في حركته إلى حمل وديع. ، يمر الآن بنعومة وانسيابية ، يداعب ، يلاطف. يمشي الهوينا ويلامس بخفة ، دبيب أصابعه وشعيرات شاربه تمرق كتيار هواء ناعم ومنعش ، ابتدأ من منحدر ما بين النهدين نازلاً لوعاء البطن ، توقف عند السرة ، لبط لسانه بقوة في فوهتها ، مسح الجدران ثم كوره كمسمار فوق شدتها. إنه يخترق سرتي. يضغط فيتوغل المسمار خارماً الجلد. فوهة الحرارة تبعث شظاياها إلى اليافوخ ، نيران الرعشة لم تعد موجاً يطم

أجنـابي ، بـل صـار شـلالاً يغـرق جـسدي في لجـه. هـديره يعلـو صرخاتي. أنا أفوق خريره عنفاً. رغبة وراء رغبة والرجل يسرح في حوض جسدي العلوي.

- ماذا سيحصل حالما ينزل إلى الدغل؟

بدا ينحدر. أواه. آه.

- أعطني نفساً. برهة.

لا ترمني في عمق الشلال ، أرجوك ، قدني خطوة خطوة. أنا أتيه في العمق.

لم يسترق السمع ، كان ضغط فوق وركي ، انكسر الحوض فاتسع لاستقباله. إنه يدنو الآن مني ، الداخل الكث والدغل المكثف والكهف المظلم ولزوجة الحياة السائرة في عروقي. حركت نصفي السفلي تحت وطأة ثقله. كنت أهيئ رقدتي لولوجه.

نهض عني. نفض ريشه من غبار الرمل. وقف عند قدمي فبان لي إنه طود ، طوى جذعه عندما مد يده لينتزع سرواله. كان منحنيا ولم تتح لي الرؤية. رجوته أن يقف ثانية. كنت أود أن أشاهده. تمعنت النظر فيه فمرت غشاوة بين العينين. ملتاعة من المفاجأة وأصرخ:

- هيا. إذن.

باعد الساقين لفتحة تكفيه. ثم رفعهما فوق ، صرت مطواة. جذع فوق سرير الكرسي وساقان معلقتان في الهواء. تدحرج قليلاً باتجاهي. لم تناسبه الوضعية فمرر الساقين من حوله مع ضغط على

الركبة. أثنيا حوله. لامسني برفق. ثم اصطدم بي. قضيب حديد لسع جلدي لوهلة. شعر أن الاصطدام يميل عن الموقع. انسحب إلى الخلف. قدماه تنغرس في الرمل. عاد يتسلل بخفاء حتى وصل. جس المكان ففاحت عليه رائحة الأنثى. استكان كأنه يقيس أبعاده. اندفع شيئاً فأوقدت جمرتي. دخل ثانية ، حوض الجدار يتسع له بعض الشيء لكنه ما يزال خفياً ، يمسك بخناق القادم. دخل أكثر فامتدت النيران بطول الجدران.

من وسط التجويف تأتي ريح عاصفة تحمل الرغبات ، صدها بتقدمه البطيء. لحظات أخرى علا فيها صراخي ، كان متواصلاً. هو بدا يسبح في اللج. وصل إلى مسافة مصطدماً بجدار. تحسسه مرتين. الأولى كأنه يكتشفه قريباً من الجدار ، الثانية كان عند المنتصف ، الجدار رخواً ومطاطياً. عندئذ انفجر. شهاب مارق حارق مر باندفاع جنوني. لقد وصل المنتهى فانثال العشق. ساح رطباً في البداية ثم لزجاً مر بين فخذي ، يتقطر فوقي ، أنا المتواصلة الصراخ بدأت أصهل ، مثل فرس شاقها السفاد فتعالى صهيلها. صوتي يطغى على سكون البرية فينتظم مالئاً الأرجاء.

الذي فوقي انتظمت حركته ، صاعداً ليلامس شغاف القلب ، نازلاً في حقل الدغل. تحرقني حركته فيتوالد الشرار في كهف مظلم يضاء الآن بالوجد وعشقاً لا يتوقف. كلما ازداد صهيلي زاد الرجل عنفوانه في كل الرجاء يمخر كالباشق.

ـ آه آه. آواه ، تعالي أماه.

إن ابنتك يسفدها مارد جبار ، لا تستكين لمده ، يرفعها سماوات ويهبطها أرضين. مرة تطير حمامة في الأفق ، يرفعها الإنتشاء ، ومرة ينزلها ثقله إلى قيعان بلا قرار. فحيحها وارتعاشها وتشنجها واستحمامها يزيده وجداً.

- إدفع ، أقوى.

هل فعلاً طلبت أمراً؟ ، إن جسدي خدر بفعل اندفاعه ولم أعد أقوى على لملمته ، الأجزاء المبعثرة منه ترقص طرباً. حوضي وكهفي ولهفتي هي من نادته ، إذن أنا في دوامة الريح ، ريح عاتية تعصف بكياني ، يرتعش لها جسدي ، تذري ساقي في لج العاصفة ، تقلصات البطن مثل موجات متتالية تضرب عموده فيتقد جمراً ثم لهباً ثم شبقاً.

إن ما يفعله لي لم أره في حلم أو أمنية ، إنه يقودني نحو مجهول ، عالم آخر صنعه الخيال ، لم يعد اسمه شبقاً ، إنه الإلتصاق الأولي البوهيمي بين انثى وذكر ، تفصدا علقاً والتصقا في مد كوني ، خال من أيما إيماءة.

صارت حركته سلسة ، كأنه يتهيأ لأن يغوص في عمق القاع. تقاطيع وجهه تنبئ عمن يلبط في بحر ، لقد اجتاز الأرجل وأرض الدغل وهو الآن يسبح في الكهف . ظلمته الحالكة أضيئت الآن بفنارات العشق ، ارتد مع الموج القادم سيلاً ، عانقه ثم صعد مرة. اندفع إلى دون السطح ، غطس في هبهب الكهف. يستجمع قوته ليندفع ثانية راكباً موجة أخرى. تصفعني أمواجه وأنتشي من

السابح في الاعماق. يتمدد جسدي ليحضن بلله. أعمده برعشة قادمة تواً كاندفاع الشلال. بدأت من أسفل اليافوخ واقتعلت كل ما تمر به ، النهدان تراقصا. حوض المعدة تقلص ، أجنابي تشظت وجعاً ، وحالما صبت في الكهف اعتلاها. ركبها فانتشى.

- أموت فيك.

كأن كيس حاو حل على عجل فقذف ثعابين وبالونات وطيوراً. وأشياء أخرى جميلة. أنا امتلئ لزجا من حبه. كان يفرغ فيّ حبات من شذر بلوري ، لقد أغرقني في أجمته.

انطرح بجانبي يلهث.

مرت لحظات ولما تزل أنفاسه مضطربة. بحث في كومة الملابس ، أخرج سيجارة. سحب نفساً عميقاً ، عبأ صدره واختزنه حيزاً من الزمن ، خفت اختناقه لكني شاهدت حلقات الدخان تنفقع في الفضاء. ساكنة أنا بجواره أطالع السماء ، ثمة غيوم بيضاء تركض باتجاه الشرق فاسحة عن أفق صاف ، حتى ريح الرمل هدأت. انتاب الكون سكون ، مثقل بحرارة الشمس الحادة.

عندما أطفأ السيجارة كان قد انتظم نفسه وهدأت زوابع جسده ، كطفل وديع يغفو. استطالني الحنين فشع نحوه. أنظره بمحبة عجيبة ، كأني أعرفه مذ كان صغيراً ، الحنية لم تعرفها نفسي قط بهذه الإنسيابية ، إنها تفيض إليه وتهدد رقدته الجميلة ، منذ قبلني ألفته ، لم يعد غريباً التقيته اليوم ، ومنذ طبع بصماته فوق جسدي غدا صفوي الذي لا يفارق.

تدريجياً يزال الخدر من الساقين فتدب فيهما الحركة ، حاولت النهوض مراراً لكنني غير قادرة الآن. بهدوء انسل من تحت ذراعه لأقف فوقه. توجهت صوب كومة الملابس ، أبحث عن قطعة تمسح الرمل عن جسمه. أخرجت من جيب البنطال سروالي ، اعترتني ابتسامة عريضة من طريقة الطي. فردته من عكشته ثم جعلته كمقشة السعف ، أطرد حبات الرمل عن الرجل النائم.

قطرات من دم علقت بين فخذيه ، معجونة بالرمل فاتصلت بشعيرات الجلد. ألامسها برفق محاولة انتزاعها حتى لا يستيقظ النائم ، لكنها أبت ، الكثير من الرمل عالق في جورابه ، نفخت زفيراً حاداً فتطاير الرمل. أنا أنظف جسده من رمل العناق ليغدو طرياً لعناق آخر ، مررت ممسحة الرمال فوقي. هالني ما رأيت عند النهدين. لقد احتقنا وثمة بقع بنية اللون تؤشر موضع أسنانه ، رفعهما عن الموضع يجعل الألم حاداً. البقع على الثدي الأيسر أكثر انتشاراً مما حادني ابداً أن أمسه.

بقية الرمل عن بقية الجسد تطاير بيسر وسهولة لكنني توقفت كثيراً عند ملتقى الفخذين. وجدت آثار حرب ضروس وقعت هنالك.

اختلط الدم بالعرق والرمل بالرغوة حتى صار عجيناً صلباً ، إن إزالته تتطلب استحماما وصنبور ماء متدفق. انى هذا لي وأنا عارية في قفراء صحراء خالية؟ قشرت ما استطعت دون أنين ، بيد إن ما تبقى سيجعلني أعوي لوعة.

- هلا تحمل سيارته ماء؟

فتشت ، حتى تعبت وجدت المفتاح ، انغلق أمامي صندوق السيارة.

- الحمد لك. الحمد لك.

ثلاثة عشر لتر ماء مغلقة الأحكام في قارورة بلاستيكية تنتظر أمامي. حاولت أن أفتح سدادتها فيئست.

- يا فاتح الثغور إنهض.

جفل من صوتي العالي ، قربت القارورة ولما يزل غافياً ، بسهولة واندهاش فتح غطاءها. لقد أدارها بعكس ما فعلت.

- هذي . أنا ضائعة في الإتجاهات.

هذا شرق ، دورت جسدي ، هذا غرب. والهضاب الرملية تقع في الشمال ، إذاً ما الذي أنا فيه؟ لم يأخذني البكاء كالعادة بل غمرني الفرح ، إذاً أنا مبتهجة رغم إني استعصيت فتح القارورة ، هذا الرجل المسجى أمامي أعاد تكويني بشكل مغاير.

حتماً أنا أهلوس أو أولول عندما ابتدأت بمسح جسدي بسرواله الداخلي المنقع في الماء.

اغتسلت برائحة الرجولة الفائحة من الرمال. قطع البطن الجبسي تساقطت بسهولة. بدوت نظرة إلا من الأم الثديين والفخذين.

قطرت ماء من أصابعي فوق شفاهه. كانت مشققة وجافة ، لكنه لفظ القطرات وأشاح وجهه بعيداً ، ثمة شيء آخر يعيد طراوتها. قربت نهدي. تشم الرائحة وبدت الشفة السفلى ترتجف. حدت عن

الفكـرة وبحثـت عـن حقيبــة اليــد ، كانــت مرميــة بإهمــال تحــت العجلات ، جاهدت أن أطولها.

ثمة قطع مكسرة من بسكويت مالح في كيسها تقع ، فتحت العلبة وبللت بعض القطع في الماء ، ذابت بسرعة وبسرعة ألقمتها له ، كان يمضغ وهـو نـائم. كطفـل يلقـم غـذاءه الأول بعـد الفطـام أبـصرته. أرعشتني الفرحة وسعدت بما أفعل. لقد التهم كل القطع المهشمة ، لم يعد لدي ما أطعمه. يبـدو جائعـاً جـداً. فتشت بدقـة في الحقيبـة وأرجـاء الـسيارة فلـم أجـد غـير إصـبع شـوكولاتة ، مـائع مـن لفـح الـشمس. حملتـه بتأن مقتربـة مـن فمـه. لكـني احترت بالكيفيـة ، حارني أن يبقى الإصبع المائع قريباً ولا يناله.

نـز في مخـيلتي بعـض مـن رغبـاتي الليليـة ، سـأفعلها. لطخـت الثدي بسائل الإصبع فاصطبغ بلون بني داكن. كان كافياً لأن يغطي علـوه وحلمتـه وبعـضاً مـن سـطحه الـسفلي ، صـار الـذي في جهـة صدري اليمنى كرة شكولاتة.

قربته منه فلم يسترع ، لا الرائحة ولا الطعم أثارا انتباهه.

- إنه حقاً جائع.

رفعــت رأســه وأدنيتــه مــن الثــدي ، فتحــت الــشفاه بأصــابعي وغنيت ، كما الأمهات في المهد ظلت النغمة تتكرر. لقد راقه الغناء فبـدأ الرضـاعة ، مـص الحلمـة ثـم دب فـوق اللحـم المكـور ، طعـم الحلاوة سرت في عروقه. صحا من رقدته. شاهد امـرأة كانـت تنـام منذ قليل تحته ، تلقمه الآن ثديها محلى بطعم الشكولاته.

لم يعترض ، ابتسم لي وواصل مص الطبقة البنية اللون. عاد إلى نومه ، هانئاً وضاحكاً ومسروراً ، الإبتسامة لم تفارق ثغره عندما انتظم تنفسه في طبقات النوم العميق.

مضت ساعة ، قضيتها أتسلى بأشياء بسيطة. مثل طفلة تعيد ترتيب لعبها. دسست سروالي في جيب البنطلون ثانية. عبثت في ملابسي ، لم أفكر في ارتدائها. نشرت الشال فوق وجهه. وسرواله غطى أعضاءه البارزة.

درت حول المكان مرات عدة. جلست داخل السيارة ، وراء المقود أعيد مهارته في القيادة. نظرت نحوه ، هب إنه استيقظ؟

دنوت ، كان بعض من تنفسه شخيراً يصفر ، طويت عائدة أدور حول السيارة. كان جسدي يخرج رويداً من الإنفلات إلى الرغبة الثانية.

لم أفكر بأن أوقظه معلنة رغبتي ، كان نومه حلماً جميلاً ، راقني شكله فأحببت أن يظل.

تشممت إبطيه ، فلم أجد إلا أن انطرح بجواره فوق كرسي مخلوع ، سحبت ذراعه وجعلته وسادة. تململ في مكانه فاستدرت نحوه.

- هل يحلم بي؟

لا أظن أن أفق رؤياه يتسع لامرأة أخرى ، لا معنى أن أصنع لي وهماً يقود إلى ألم ، أنا وهو في برية ، نستظل بسيارة في قفر خال. هذا ما يجعلني ملكة الزمان والوقت والفرصة ، فلا مبرر لنوازع

مزعجة ، إنه الواحد بجانبي وأنا الوحيدة التي تنظره ويحرقها الشوق لحضنه.

- إرو قحط ثلاث عشرة سنة..

قطعت جملتي عله يتحرك ، لم تنم من طرفه ايماءة.

- عطش العمر وخوالي الليالي..

أيضاً لا يسمعني..

- منذ نضج الثمرة وأنا أتدلى لمن يقطفها..

ضرب ذراعه قاع البطن فجفلت ، ما زال راقداً.

- شقق العطش أرضي ، هل تسقيها؟؟

أظنه صحا ، وأظنه كان يستمع.. وأظن إن الإستراحة مضت.. وحان الآن لأن ينهض ثانية..

سحبته بهدوء وضعت مرفقي تحته ، كرافعة حملتاه ، وما إن فسحت بركة حتى اندسست تحته ، كان إلى الجنب فقلبته لفوق ، صار الآن يرقد فوق لحم حي..

- آن أن تستيقظ..؟!

لحركته الأولى أطلقت زغرودة محملة بالفرح.. لقد عاد يمتطي صهوته..

لقد رأى في عيني شبقاً يعادل قصصاً وصوامع ورياحاً وأمطاراً ، فابتدأ الحكاية الثانية ما دامت الأولى قد أنهاها منذ ساعة.

في الأولى كان فاتحاً يدك قلاعي ، في الثانية جاءني فارساً يمتطي حصاناً ، في الثالثة شاهدته عاشقاً يتذوق عثق دغلي ، في الرابعة

أتخيله غازياً وطأ قفري ، في كل مرة أراه بهيئة جديدة ، إنها بقايا صور من مخيلة أتعبتها الليالي الخاوية ، حينما هطلت أمطار الحكاية السابعة نهض عن جسدي.

مدماة ومنتشية لكن متهالكة من التعب والأنين ، قرص الشمس الإرجواني أضفى على جلدي لون الخفوت ، كانت الشمس تميل إلى الغروب ، تهبط دائرتها في الأفق الغربي ، مخلفة بعضاً من لون الدم عالقاً في ذؤابة ضيقة. ما زال بعض الضوء يفتح طلسم الأفق.

اتجه نحو السيارة ، جلس خلف المقود إلا إن ساقيه يمتدان إلى الخارج ، عبث قليلاً في المذياع ، تنبعث أصوات متداخلة ، حتى استقرت عند أغنية هادئة. الموسيقى انتشرت في فضاء الفراغ. هو يدندن مع النغمات. طرب ثم تأفف عندما ختمت الأغنية ، أدار المذياع إلى محطة أخرى ، ثمة من يتحدث بلغة أجنبية ، انتقل إلى موجة أثيرية أخرى ، أعلن المذيع عن نشرة أخبار ، كان الخبر الأول عن سقوط الصنم في ساحة الفردوس[1] ، جماهير المتظاهرين اعتلوا النصب ولم يسقط في البداية ، قال المذيع إن رافعة للقوات الدولية ربطت جنزيرها في رقبة الصنم فهوى.

لم أصغ السمع جيداً لما جاء في حيثيات الخبر لكنني تنهدت عندما قفز الرجل في الهواء. وَلْوَلَ إلا إنه في الحقيقة يتأوه فرحاً ، لقد صفق يديه لما استقر في الرمل. أطالعه مندهشة من رقصه ،

---

([1]) يوم ٩ نيسان ٢٠٠٣.

يدور حلقات ويعقبها بالطيران في الهواء ، ولما يعود يفرد جناحيه ، ذرات الرمل تطاير تحت قدميه.

أبتهج لفرحه ، وأتناسى زوبعة الغبار التي خلفها في حلبة الرقص ، كنت منطرحة إلا إني رافعة بوزي بمساندة الذراع ، على بطني أرقد ، توالى صفيره ، رسم إشارة غامضة فوق محيط فضائي وذهب. كان يجري الهوينا إلى عمق الصحراء ، بعض خيوط الضوء الباقية تتيح لي متابعة قامته ، ابتعد لحد لم أعد أبصره. كان يسير نحو الشرق.

قلت إنه يتنزه. تشاغلت بلم أطراف جسمي ، يفتته التعب لكنه متوهج. أطالع نصف جذع فأقعد معقوفة الرجلين ، تفحصت ما تبقى من الجسم ، كنت فرحة أن لون جسمي قد تورد.

بعض الرمل تطاير حالما وقفت على ساقين واهيتين ، تحاملت قليلاً مما اضطرني أن أستند على هيكل السيارة ، جرجرت قدمي ببطء.

- أنا يافعة ، متعافية.

شجعت نفسي ، أمدها بنسغ روحي الممتلئة فرحاً ، استجمع إرادة هزها فحيح الرجل لساعات طوال ، تذكرت بعضاً من حركاته فدب النشاط في أعضائي ، فتحت قارورة الماء بيسر هذه المرة ، دلقته فوق عنقي فسال خطوطاً منحدرة إلى الأطراف ، زادني انتعاشاً ، وعدت كما كنت نشطة.

أزلت ما علق في جسمي ، لفحني بعض الهواء الهاب مع أول

ظهور لهلال القمر. أتيحت لي الفرصة لأن أرى المكان أولاً ، الضوء الخجل الظهور يساعدني على مراقبة أفق الشرق الذي ذهب إليه الرجل ، شعرت بقلق عندما لم يلح ، لكنني أبعدت الخاطر. ثمة متسع من الوقت لأن يقضيه منفرداً ما دام الليل كلكل علينا في البرية.

فتشت عن شيء أتسلى به فلم أجد ، عالمي يتكون من صحراء جرداء وسيارة واقفة في قفر. إذن ماذا أجد؟ ضحكت وقلت أرقص ، أعيد رقصته حتى ينصرم الوقت ، لم أفعل.

في الحقيقة كل حين أتطلع إلى الأفق ، عله يعود ، بدا قلبي يغوص في أعماقي ، انتابني الخوف جدياً وبدأت أبكي. مرت ساعتان والرجل لم يظهر بعد. الريح تصفر فضاق خيالي لحد إني تخيلته غارقاً في أجمة رمل.

تعالى نحيبي وفكرت بماذا أفعل. لم أيأس من عودته ، ما زلت أتشبث بالأمل. إذ هل من المعقول أن رجلاً كالطود يختفي فجأة؟

استجمع قوتك وتعال أرجوك. أنا بعد اليوم أمسيت منك.

- لا. لن يغيب ، لا. سيعود.

ابتهل بصلاة صادقة إلى السماء.

كان يرنو حتى حاذني. أفقت من ابتهالي مذعورة. كان يقرصني بضحكة مجلجلة.

- ماذ فعلت بي؟

استقر القهر في جوفي بيد إن وجهي نمّ عن إشراقة وضاحة

وجلية ، تعلقت بعنقه مرحبة وسعيدة بعودته.

تساقط الحطب والشوك اليابس لكنه احتفظ بحرص شديد عما في راحتيه. إنه يحمل فقعاً بني اللون ، أكمة ملفوفة ومستديرة على شكل كرة. قدمها لي:

- أحلى هدية.

فعلاً كنت جائعة منذ الظهيرة ، الرجل تولى مهمة إشعال النار بينما أنا اقوم بتحضير العشاء ، قليلاً ما اصطبرت النار لكنها توهجت فجأةً ، لهيبها صعد أبيض ثم صار أزرق ، تلفحني حرارتها عن بعد فأشعر بالدفء والإمتلاء.

شوى الأكمتين برفق ، يقلبهما عدة مرات حتى استويتا. بانت الطراوة في اللب ، مدهما لي كي أتأكد. وضعتهما فوق قطعة قماش من ملابسنا فجلس القرفصاء أمامي ، أنا أتخذ السيارة مسنداً لجلستي ، كورت حجري فالتم تماماً مثلما تقعد أمي ، بالتأكيد لا ينظر عريي الآن.

حملت الأكمة الأولى بعدما خفت سخونتها ، قطعت جزءاً ومددته له. لم يوافق ، كان ينتظرني أن أباشر أنا أولاً ، غرست أسناني فيها وبدأت المضغ ، استمرئ الطعم تبسم لي وانشغل بطعامه.

في الحقيقة أنا خجلة من مشاركة الآخرين في الأكل ، كأنه أدرك ترددي فانقلب من القرفصاء إلى التمدد ، واضعاً رأسه في حجري ، كنت أعلى منه مما يتيح لي فرصة المضغ بروية. أنا ازدري الطعام

وأفكر وأُمنّي النفس بأمسية جميلة.

أفق مظلم ونيران موقدة وسكون أطبق حتى على ضوء القمر ورجل ممتع ، اتخذ من فخذي وسادة له. لتكن أمسية الأماني والأخيلة.

- هل أرقص لك؟.

فرح ، ترك الطعام ، كل حواسه يقظة. مد يده يرفعني إلى ساحة الرقص ، حول النيران المتوهجة.

- هل أستر عريي؟

رفض ، ففرحت ، إنه يريدني كما خلقت ، عارية تزقزق إلى الدنيا وتتقافز أطرافها في الهواء. الرقص لدي هو التعري. تجريدي من كل ما يحيطني. أظن نفسي عندما أرقص إني كومة ريش يطيرها الهواء فتسبح في الفضاء ، خفيفة ونقية ومزدهرة.

آن له الآن أن يرى نعومة جسدي وليونة الأرداف ، حينما ابتدت فز النهدان من رقدتهما وباتا يغردان ، عند الإستدارة الأولى بان الخصر ، ضامراً ، نحيفاً ينقر دفاً ، جلجل الظهر مستقيماً ومنحنياً ومائلاً مثل مضمار لسباق قادم ، الأرداف رفرفت ذات اليمين لتدق طبولاً وذات الشمال تهز أبواقاً نحاسية. هلل فرحاً وطرباً وشاركني الرقص. أوقفته عموداً لأتلوى حوله وأستقر في حضنه ، ألامسه وأبتعد لأجعل من يده محوراً ، مثل المصراع أدور بسرعة وبخفة أدنو ثانية منه.

مبهوراً من رقصي أخذني إلى صدره ، كنت غزالاً شارداً

استكان لدفء حضن الرجل. جل ما أتمناه حنين صدر يضم شعثي ويمسح العرق المنصب من الرقص. وكان هو ، حاضراً ودون مواربة سعى حلمي إليه.

لف ذراعه حول خصري فاشتعل حزام النار ، ألهث مع اللسع لكنه لكزني في منطقة منتصف العمود الفقري. سرت قشعريرة فحل الحزام عن وسطي ، مسك مرفقي وقاد خطواتي بعيداً عن عش سيارة.

كنا نطوف في الأرجاء ، بدد صمتنا بعض من ثقل الكون. نمشي وتغوص أقدامنا رملاً ناعماً ، خطوط السير متعرجة ومرات تصير حلزونية ، بعض من خفوت الموقد يدلنا على قرب المسافة مع العش ، هو يهوى أن يطيح بي إلى الأبعد وأنا دون أن أقاطع خطواته أنحرف به عائدة ، لم يك ثمة شيء يثير اضطراب الممشى ، فكثيراً ما توقفنا أو درنا في موضعنا. يرفعني بيده ثم يجذبني ، أنا أدفعه فيسبقني أمتاراً ، كأننا نلعب بصمت.

اشتقت إلى صباي وعشقت بعنف من يلاطفني ، حنينه إلى اللعب يجعله يبتكر ألعاباً جديدة عليّ ، آه. نسيت إنه من بلد آخر.

- هل أحدثك عن رغباتي؟!

انتبه بحرص. كأن موجة أثير مرقته خاطفة. تعمدت إيماءاته وسكناته ، وأقدر معناه ، فعزاها لا يمكن بالحركة بل بما يرافقها من خلجات ، شدني انتباهه وحرصه ، ورغم إني أعرفه مستمعاً جيداً لكني تغالظت ولم أحك شيئاً ، فاتني أن انتظاره يعثر الكلمات في

لساني. رويت له الكثير ، ليس إفاضة بل هي شذرات مما اختزنه العقل طوال كل هذه السنوات العجاف. أنقل له صورة وأستفيض بالأمنيات المعلقة حول إطارها ، مكنونها والذي هو نسغ روحي أيضاً فلم أتطرق إليه ، هذا عالم لم يحن الحديث عنه بعد.

انهمرت الرغبات وتعددت حتى فاض منها بصمت الليل ، إذ فجأةً أنير الفضاء. تطلعنا إلى العلو ولم نجد غير السكون ، مازحني بحركة فأدركت أنه أوقد ولاعته خلف ظهره مشعة ضوءاً ، هو ما أثار انتباهي وجعلني التجئ إليه خائفة.

ضربت يده بقبضة يدي عقاباً ، تقبلها بطيبة وحنان فائض ، طبع قبلة فوق موضع الضربة ، تأوه من الوجع وحزرت إنه يعاود لعبه معي فسارعت بطبع قبلة أخرى ، مائلة قليلاً عن الأولى وقريبة جداً من موضع القلب ، خفق قلبي بسرعة للنبض الذي تحسسته شفتاي ، قربت أذني أستمع فرقد رأسي هنالك. لقد توأمت رأسي بقلبه ، أنا الآن أسكن المد والجزر ضفتي الخفقان.

بالتأكيد انقطعت الأماني عند حد الضوء البارق فجأةً ، كانت رغبتي محرقة بأن أطلعه على كل ما أتمناه ، أحلامي ونوازعي وإرهاصات الليالي. انقطاع الحديث بحركته المبتكرة ونقلي إلى خفقان القلب جعلني أشعر بأن هذا الرجل ينقلني من آلامي إلى عالم ملؤه الوجد ، لقد وضعني مباشرة في الحمى ونسغ العروق.

إذن هذا هو عالمي الجديد.

- عليك أن تقود خطواتي ، فأنا غضة.

سمعني جيداً ولم يأت إيماءة ، إلا إنه أعادني نحو العش. يمشي أمامي ويجرني بيده. شعرت إني طفلة يقودها وليها إلى الدار ، أعقف يدي فوق صدري ، منتصبة أمام العش ، أطالع رجلاً يعد لي فراشي ، تملكتني طمأنينة تامة ورغبة بمشاركته بما يعمل. أستغرب مهارة أصابعه وهو يفك كراسي السيارة.

- إنه فعلاً ميكانيك. حاشا.

أعاد ترتيبها بحيث شكلت سريراً يسع شخصين. فتح نافذة الزجاج وطال كومة الملابس ، وزعها بالتساوي لوسادتين. أراقب عن بعد وأنتظر. أضاء المصباح الداخلي الخافت وخرج ، ضغط زراً ليطول من الصندوق قارورة المياه. لم يستحم بل بلل كل جسده ، بحث عن قنينة عطر ، أنا منعته وهو لم يجدها. كنت قد أفرغتها طوال الوقت فوق مكامن الرغبات ، عندما غاب دفنتها في الرمل.

انحنى مرحباً بضيف أعد له السرير بتأن وذوق. لم يكن ينقص المنام إلا بعض السعة والتي لا يمنحها عرض السيارة ، مسحت جسمي بماء قليل وتعطرت بشوقي.

- مبللة ومعطرة وجاهزة لأطيافك.

انحشرت بينه وبين مسند الكرسي ، لكنه يسع رقدتي على الظهر ، وهذا ما أريده.

لم نقترب بعد من منتصف الليل ، الهلال مضبب بغبار الصحراء والمذياع ابتدأ يبث أغاني. في مكانه شبه الضيق يتقلب ، أحياناً يعطيني جنبه وفي الكثير يركز بصره نحو الضوء الخافت.

- هل تنام ، بعد عمري..؟

فعلاً كان يرغب ، بعد يوم حافل آن له أن يستريح.. لم تك لدي رغبة إلا ملاطفته ، لقد ثقلت عليه فمنحني كل الرغبات ، أغمضت عينيه وهدهدته بترنيمة قديمة.. غفا على النغم.. أراه حلواً بعدما انتظم تنفسه..

داعبت شعر صدره.. مررت أصابعي بكل الإتجاهات ، ليس كثيفاً بل ينتشر على عرض الصدر ثم يلتم كخط طولي نازل.. الشعر عند الفخذين كث ، ألامسه دون أن أحتك بالجلد.. تخدرني المداعبة وأنتشي من جسد صار ملكي..

وجهه شاشة تعبرها كل اختلاجاته وإن كان نائماً ، يعقد جبينه ثم يفرج أساريره.. قربت وجهي من منخريه ، أتعطر بنفسه ، لفح خدي هواء فاحمر.. هل يراني في طيات حلمه؟!..

اجتزنا الساعة الثانية عشرة ، وبعملية حسابية بسيطة وجدت نفسي سعيدة.. سقى لي سبع سنوات عجافا ، غمرني بلطفه حتى فاق كل أمنياتي.. ملاطفاته أعادتني إلى أعوام النضج ، بهذا أكون أنا في مقتبل العمر ولم أعد بنت الحادية والثلاثين.. أنا الليلة أبتدئ حياتي من جديد ، فتية ترى أول مرة في صدرها نهداً فترقص فرحاً وتخبئه عن أعين الآخرين.. مرت بي هذه الصورة وأتذكر أدق تفاصيلها.. إنها الليلة الأولى لفتاة أمست أنثى..

طوقني ذراعه بعدما انقلب باتجاهي.. خفت إيقاظه فلزمت السكون.. هذه الليلة كتلك التي مرت ، حلمت بها بفارس ، الليلة

صار طبيباً ، أنيقاً وذا ذوق رفيع ، لعلي أعيد الحلم به.

يطرق باب غرفتي ، وجدني ألبس فستان سهرة مفتوح العنق ومصنوعاً من المخمل. طويلاً بدون أكمام ، كان شذري اللون ، أخذني بيده وأدخلني بهو صالة واسعة ومزينة برسومات جميلة.

ثمة موائد معدة بترتيب منسق ، أختار الأخيرة ، القريبة من النافذة ، أجلسني مثل سيدة راقية ، أخبر النادل بما نريد وسكب لي من إبريق عصير عنب أحمر. علمني كيف أقطع طعامي. وبعد العشاء طلب من عازف بيانو موسيقى هادئة ، راقصني وضمني وقال لي جمل الغزل.

على مقربة اتكئ. نسير نحو غرفة بفراش وفير. اندهشت لأثاثها المرصع. أجلسني على السرير ولما أتعرى له. كنت أنتظر أن يبوح لي بعشقه. انتظرت ثم نمت على ذراعه.

عندما أفقت من حلمي وجدت خيوط الفجر تشقشق ظلمة الليل والصحراء. أيقظته ، قرصت خده ، تململ في مكانه ، دنوت منه فأفاق. وجهه مجعد والجبين معقود ، أقسم أن هذا الرجل يستهلك طاقته أثناء النوم ويروم الحلو دائماً.

- أسفة ، لا أصبع شوكولاته أمتلك.

تثاءب بكسل ثم نهض ، خارج السيارة يبصر انبلاج الصبح ، مدد بدنه بدفعات قوية الأطراف ، أحنى رأسه باتجاهين كأنه يطقطق الفقرات ، لفني برد الجو فارتجفت. اتكأني على هيكل السيارة من الجهة الثانية بحيث أصبح الهلال في ظهري. غطت كفاه النهدين ،

وأطبق فمه متصالباً مع شفتي ، قرب ساقي وجعلهما ما بين فخذيه. استمر مطبقاً علي عشر دقائق ، إنه يغلق بوابات جسدي المشرعة.

ناولني القميص القطني ، حكمت أزراره على مهل ، بعدما شد لي حمالة الصدر بيده ، مد التنورة فصعدت بسهولة ، ابتعد قليلاً يلاحظ هندامي ، عدل من موضع الفراشة النحاسية وسحب القميص ليصنع لي جيبا ، ناولني الحذاء وابتدأ بارتداء ملابسه ، أصابعه ماهرة وسريعة ، لقد توارى العري عند أول الصباح.

انحنى لسيدة باسطاً ذراعه يدعوها إلى الصعود ، شكرته بأدب جم ، عندما جلست بحثت عن أحمر الشفاه في الحقيبة.

هدر المحرك محدثاً ضجة ثم انساب ناعماً يدور ، استدارت السيارة سالكة طريق العودة.

قطعنا أرض الرمل بصعوبة ، ما زال جزء من الظلام يغلف الفضاء ، إلا إني أراقب بفرح خيوط الضوء التي بدأت تنتشر. عندما اجتزنا الرمل ولما تلوح المدينة بعد توقف ، بعض أضواء طريق المطار تلوح من بعيد.

ظننت إنه نسي حاجة ويرغب بالرجوع ، لكنه في حقيقة الأمر أخرجني من السيارة وأخرج سروالي الذي نسيته ، باعد قدمي ثم أصعده رويداً ، كانت التنورة تصعد معه ، ثمة تيار هواء بارد لسعني ثانية ، أصبحت أرتديه بعدما فقدته إحدى وعشرين ساعة.

ابتعد خطوة نحو اليمين ودس يده فوق منطقة الكهف ، أيهما

أعرض.؟! ، استقرت الكف لكن الإبهام تحرك نحو الشق ، تحسس عدة مواضع حتى استقر عند الحافة العلوية ، كان فوق الجمرة الأولى ، ضغط بقوة ودفعها لعمق الدهليز ، ثانية الإبهام يبحث في موضع آخر بيد إنه استدل بيسر على الجمرة الثانية وفعلها ، مسد المكان ورفع كفه ، نزلت التنورة تغطي عري الصباح.

فتح الباب دون أن يومئ:

- إصعدي.

نطق. لقد نطق. أيها المارد الخبيث ، يوم وليلة وأنا أثرثر ، ساعات وعيناي تتوسلك لأن تقول شيئاً حتى ظننتك أخرس.

- وأخيراً؟؟

- صباح الورد والياسمين.

أنا والله هللت ، أطلقت زغرودة طويلة مجلجلة بالضحك والإبتهاج ، ما زلنا في فضاء القفر فلم يسمعني أحد.

بعض الأميال وأستلم طريق المطار الواسع ، بدا يتحدث وأنا كلي شغف لرنة صوته.

سرد رواية طويلة ، تخللتها تواريخ وشواهد من زمننا ، كان يحكي سيرة حياته ، أطال الوصف كثيراً لشجرة عند النهرين وتوقف مرات عدة عندما أقاطعه:

- بلى. سمعت بهذا الحدث. سمعت. رأيت في التلفزيون.

هل أنا جزء من حكايته ؟! ، بعضها معروف لي ، طريقة السرد

تجعلها مشوقة. كلي آذان صاغية فمر طريق العودة سريعاً.

ألفت نفسي عندما بزغ شارعي المفضل أمامي ، انبهرت لأنه أنساني مراقبة الطريق ، ما زال الشارع خاوياً ، بعض المحلات بدأت تشرع أبوابها.

وقف أمام العيادة ، كانت الساعة السابعة ونيفاً ، إذن هي ساعة أخرى وتقدم (عائشة).

نزلت منه ومن السيارة ، أتثاقل الخطوتين اللتين تجعلانني أقتعد دكة البوابة ، ذهبت سيارته مسرعة وأنا غفوت في الشارع وفوق الدكة.

# ٣ـ غائب يوم أول

فتاة بجسد أنثى دلفت غرفة فارغة ، ثمة ثلاثة أسرة ترقد في أطراف الغرفة ، وارت أشعة الشمس وراءها عندما أغلقت الباب ، مسدت الفراش قليلاً ، كان ناعماً ودفأت بعض أطرافه خيوط ضوء الشمس التي تخترق خروم الجدار المقابل ، نظرت في أرجاء الغرفة ، اعتدت أثاثها ورغبت في بعض التغيير ، كان النعاس يثقل أجفانها ، خلعت بعض ما عليها واندست تحت الغطاء ، أحسّته أملس فشعرت برغبة في أن ترقد.

الفتاة لم تع إنها غفت مباشرة ، كان السكون مطبقاً وجو الغرفة يدعو إلى النوم العميق ، لا ضجيج في أرجاء البيت ، كل ما حولها يوحي إنها في فضاء فسيح ، فيه نجوم وغيوم ، الريح القادمة بقوة تتسرب إليها هواء منعشاً فيحيي بعضاً من أطرافها ، لامست جسمها فلم تشعر بأن يدها اصطدمت بشيء ، كأن ريشاً أبيض يطير في الهواء ، لم يستقر بدنها إلا بعد ردح من زمن ، كانت فيه فتاة بثوب أبيض شفاف وجناحين يرفرفان. النوم العميق حاد بها إلى تذكرات قديمة ، لقد راقها أن يكون حلمها اليوم جديداً ولم يمر في بال من قبل.

هل النوم نسيج بساط يمتد بعرض الأفق ، أم إن البساط نسيج خيالات تجعل الفتاة في كنف امتداده؟ يتراءى لها في ثناياه تتشكل. أرسلت شمس الظهيرة خيوطاً لاهبة ، إلى الجنب وبمواجهة الحائط ترقد فتغير حلمها.

ألفت نفسها في لحظة من الألفية الجديدة ، وفي بقعة غير محددة تركض في سهول برية ، بساط أخضر في امتداد الأفق يشقه نهر ، تظللت تحت شجرة ثم جرت وسط الحشائش ، من الممكن أن تبدو غريبة على هذه السهول ، لكنها وجدت الألفة ما إن غطست في مياه النهر ، حملها التيار بعيداً ، باتجاه الجنوب يبدو النخل باسقاً ، طالعته مندهشة كأن لم تر نخلة فيما سبق ، لعبت في طين الجرف ، طرياً وليناً يتطوع بين أصابعها ، هرسته فعجنته من جديد.

شكلت أشياء غريبة ، الطينة الأولى فرشت فوق وجهها ، أحست بالإنتعاش ، الوجه الطيني تدحرج في الأفق ، تلملم بعض من ثوبها الشفاف عندما طيرته الرياح ، أفردت جناحيها في برية واسعة وصاحت:

- أنا بنت من؟!..

عند العصر انسحبت خيوط الشمس من الغرفة مخلفة ظلاماً دامساً ، حركت بعضاً من أطرافها ، ما زال النوم يطبق على أجفانها ، استقرت رقدتها فوق السرير ، ساق منثنية وأخرى بطولها تمتد.

رأت أن حلمها تبدل ، يتشكل من فتاة ترقد القرفصاء في فضاء

الفـراغ ، أمامهـا يمتـد الظـلام وخلفهـا يرتفـع قمـر بنـصف اسـتدارة ، طلبـت مـاء فجاءهـا الـدلو ، نـزل مـن علـو بحبـل مـسدود ، ارتـوت وأترعتـه حتـى فـاض فـوق جـسدها ، طلبـت قبـضة نـار لتتـدفأ بهـا ، فأوقد قبالتـها الحطـب ، كـان طريـاً فطفـق شـرارات ، نظـرت حولهـا ، هالها الفراغ فصاحت:

- أنى لي هذا؟!

سـارت إلى عمـق الـصحراء فوجـدت زرائـب مهدمـة الـسياج ، اقترب منـها خـروف هزيـل ، أفزعهـا ثـم جـاء كـبش مغطـى بـالروث يـنطح الأول ، اشـتدت المعركـة فتكـاثرت الخنـازير ، جائعـة وعطـشى تلعق الـدم المـراق مـن التنـاطح. نـأت بوجههـا خائفـة ، مـدت يـدها تطلب المعونة. لم يأت شـيء ، عـدا قـبرة ترفـرف عاليـاً ثـم سـرحت مبتعدة.

الحلم أخذ بخناق الفتاة فاستيقظت مذعورة.

- أين أنا؟

شيئاً فشيئاً دبت الحياة في جو الغرفة ، لقد شتتني النوم ولم أعد أعـي مـا حـولي ، مهـشمة ومثقلـة بجـسد رخـو أحبـو نحـو الخـارج ، حملت منشفة واندفعت بقوة نحو الحمام.

صنبور الماء تدفق عاملاً رذاذاً جميلاً ، تسرب فوقي مثل خرير ، أحسُّ إن جلدي يتشرب المياه ، جرت رعشة خفيفـة. بعـدت الميـاه عـن الـشعر فعرفـت إنـي في بـيتي وإن الوقـت قـارب المغيـب ، وإنـي لست ضائعة في الفيافي.

جرت الحياة ثانية في أوصالي وعادت ذاكرتي تتحرك ، لقد كنت مسيرة بنوم عميق قادني إلى التيه.

امتلأ حوض السباحة من الرمل العالق في الجسد ، بدأت أتحسس أطرافي ، ثمة رضوض في مواقع مختلفة ، بعض من الجلد محتقن بلون أزرق وآثار عميقة مغروزة فيه ، طفا الماء فوقها فأثار أنينها ، كنت أفرك البدن بقوة تعادل ما لصق به ، في الجولة الأخيرة بدا الماء ينساب رقراقاً ، أعدت انتعاش أعضائي وصرت خفيفة ، ثم فرحة ، النشاط دب على شكل صفير يماثل أغنية سمعتها سابقاً.

نشفت نفسي بخفة حتى لا أثير الأوجاع ومكامن الكدم ، سرحت شعري أمام مرآة غطتها طبقة كثيفة من البخار ، أدهشني ما رأيت ، ثمة تورد في الخدين والشفة مكتنزة والجبين ضاق لكن الوجه استدار حتى إن ذقني ارتفع قليلاً.

- إذن أنا منتشية.

جلست إلى حافة الحوض قليلاً ، أشعر إن الهشاشة في جسدي قد توارت ، امتلأت الخلايا رغوة فالتصق الجسد مشدوداً وطافحاً بالعافية.

أخرج مزهوة باتجاه الصالة ، كل الأهل يتجمهرون قرب التلفاز وكأن حلقة ذكر تدور ، الأصوات تتعالى بضجيج صاخب ، لم يسترقوا السمع لتحيتي ولم يلاحظوا اندساسي خلفهم على الكرسي ، أرتكن الزاوية البعيدة.

أشاهد ما يعرض ، صوت المذياع عالي النبرات والعائلة تتقاطع

متضاددة مع الخبر ، لم أركز في البداية على ما يذاع ، لكن استرعى انتباهي إن الأب يشتم بحرقة ، الوالدة تمنعه من الألفاظ النابية ، على وشك الدخول في شجار عنيف لولا تدخل الأخ الأوسط.

- دعونا نسمع.

هدأت الضجة مما أتاح لي فرصة لأن أراقب ما يجري. كانت الشاشة تنقل خبر سقوط الصنم في مدينة نائية ، وإن رافعة ذات لسان أمرد ساعدت الجمهور على سقوط التمثال.

- لقد سمعت بهذا.

هل أنا في حلم أم دوامة؟ لقد رقص هو قبل الجمهور الذي في الشاشة ، لكن مهلاً.هل كان يرقص لي أم لسقوط الصنم؟ وضعت رأسي بين راحتي اليدين ، أعيد ترتيب الصور ، وبعد جهد وتعب استعصى علي.

- هل كان يسبق الأحداث؟

شعرت بقشعريرة تخض بدني ، ارتجفت لها أوصالي وركبني الرعب.

- هل أخرجني إلى الصحراء ليقيم طقسه؟

طردت كل التساؤلات ما دامت تعج بضوضاء ، باتت الصور تمر تباعاً ، انتظمت في ذاكرتي حبة تلو حبة ، كما المسبحة ، عقدت الطرفين بقوة خوف هروبهما مرة ثانية.

أنّبت نفسي على ما بدر ، وصار في يقيني إني أسبق أهلي في

الزمن ، وأن الراعي الذي رقص بحرية في الفلاة كان منسجماً مع ذاته.

- لكن ، هل كان يرقص لي؟!.

سأقطع جذوره إن لم تكن جذوته مني ، طفحت بالغيظ ، جعرت أوقف سباب أبي. لحظتها تداركوا إني في معيتهم ، رحبوا قليلاً ثم عادوا إلى الشجار. الأختان اقتربتا بكرسيين مني. حاولنا فك طلاسم المشاحنة.

- أبونا يشتم خوف أن لا يأتي العريس.
- أمنا تنعق خوف أن تدوسه أقدام الجمهور.

سألت ، بكل برود:

- وما موقف الأخوان؟
- يتألمون لسقوط التمثال.

قلت لهما:

- إن الأمر وقع أمس وانتهى.

اعتبرتا كلامي هذياناً لنوم ثقيل ولم تعلقا ، شدهما الشجار المشتعل بين أفراد الأسرة ، اندمجتا فيه وبقيت وحيدة ، أرتكن الركن البعيد من الصالة ، بعد قليل نقل أخي الأصغر البث إلى محطة أخرى فكانت أغنية خليعة ، تقاذفته الأحذية فولى هرباً ، جريت خلفه أقيه رمية أبي الأخيرة ، كان يضحك ملء شدقيه على عائلة جنت بسبب التلفاز.

- تصوري ، من سقوط ريس إلى أغنية خليعة.

يكلمني ويضحك ، كأنه يراني أول مرة مما زاد من قهقهته.

انصرف ذاهباً إلى المسجد ، عما قليل سيعلو صوته مكبراً ، أنا ضحكت ثم داريتها خجلاً من خاطر مر مسرعاً.

- هل سيتذكر مفردات الآذان؟.

سرحت أجول في فسحة الدار. ثمة سكون غريب يلف الحي ، لا ضوضاء ولا أطفال يلعبون الكرة.

انتظرت كثيراً فلم يرتفع صوت مكبرات المسجد ، خلت أن أخي يتلقى أحذية أيضاً ، تبسمت عائدة إلى مهرجان العائلة الصاخب ، صرت طرفاً في شجار من نوع آخر ، لقد سرقت انتباههم عندما سألت أبي:

- متى يأتي عريسك الموعود؟

أنا الحاوية في جعبتي على عث النوازع والرغبات استبقت بالشجار السؤال عن غيابي ليلة أمس.

# ٣ـ غائب يوم ثان

صباح دافئ ويوم مشرق الشمس ترسل أشعتها باستفاضة ، بعض من الهدوء ينتاب الحي ، غافية فيه الدنيا على أنسام باردة بعض الشيء ، عرجت بعد الحي على دكان خاو ، قال لي البائع:

- من هنا تقلك المواصلات إلى المدينة القديمة .

تسير الحافلة الهوينا ، أطالع الوجوه والبنايات ، كل شيء جديد عليّ. لتوي خرجت من السبات ، أعوام ستة داخل الشرنقة وما اكتملت ، مزقتها صرخة لي ، فخرجت بيوم مشمس.

بعد حين أمرني سائق الحافلة بأن أترجل هنا ، ومن هنا سيراً على الأقدام أصل إلى سوق (الترك).

يافعة وصبية وخجلى وخائفة أقف خلف بناية عالية ، أبصر أزقة ضيقة أمامي وعشرات البيوت المربعة الشكل. شارع تسلكه السيارات باتجاه وشارع أخر تعود به السيارات ، احترت ، بأي اتجاه أسير ، أبطات أمامي سيارة ففرحت ، سيدلني على الطريق ، ثمة بوز يمتد من النافذة ، شكله كريه لكن تصبرت علَّ الفرج بهذا الوجه النحاسي ، بادرني قبل سؤاله:

- (تشلحي) سروالك؟؟

ترنحت ، لهول المفاجأة لفني دوار ، مددت يدي أتلمس جدار البناية العالية ، استندت خوف السقوط ، معقودة اللسان خرساء وبلهاء أضعت الحائط ، ارتطمت بأرض الشارع ، البناية تبدو عالية جداً ، في أعلاها يافطة تؤشر إلى (الفندق الكبير) دارت بي الأرض وثمة شيء ينتزع كأحشائي. ولولت ولم أقو بعد على الصراخ ، الوجه النحاسي يضحك ساخراً ويداه تعالجان بقوة قطعة من ملابسي ، عرفت الآن ما حدث فرفعت عقيرتي بصراخ مدو ، لملمت نفسي مثل كرة اتقاء فعلته. مر ظل كبرق لامع ، نط بيننا ، الرجل أصابته لكمة على بوزه فولى هرباً وأنا يد تنهضني عن إسفلت الشارع. شاهدت البنايات مستوية ثم رجل كالطود يقف قبالتي ، ما زلت مرعوبة مما جرى فاندفعت إلى حضنه باكية. انتحبت كثيراً بمقدار رفرفة كفه على كتفي مواسياً ، عندما تحول النحيب إلى شهقات متقطعة قال لي الطود:

- لا عليكِ. تعالي.

قادني إلى مقهى قريب ، بعض رواده كانوا يتفرجون على المشهد ، شدتني النخوة من هذا الرجل فالتصقت به ألوذ عن أعين الرواد.

أختار طاولة منزوية من ركن مستطيل ، جلب لي ماءً وعصيراً وطلب شاياً لي وقهوة له ، بدأت الرعدة تهدأ في بدني ، إن لسخونة الشاي فعل السحر ، لقد انقطع النحيب نهائياً وفتحت عيني أطالع

من يجلس أمامي مبتسماً ، روى لي ما روى ورويت له ما حدث. لقد استغل الرجل ضعفي وخوفي فهجم عليّ منتزعاً السروال.

- لم أسمع بحياتي عن مغازلة من هذا النوع.

أدركت إنه غريب ، لهجته وتعجبه يوحيان بذلك ، وجدته رجلاً فارع الطول وذا شارب كث وفتوة ذراعيه توحي إنه في الثلاثين من العمر ، مظهره أنيق وينتقي مفردات لغته بحرص شديد ، وغالباً ما تكون باللغة الفصحى.

- من أين أنت؟

سألت وأنا أواري وجهي خجلاً فلم يحدث بحياتي إني التقيت رجلاً ، أجالسه على طاولة واحدة ، خاصة وإنه اليوم الأول لخروجي من الشرنقة.

- أنا غريب ، وصلت منذ ست ساعات فقط لهذه المدينة ، من المطار إلى الفندق ، قلت أكتشف عالمي الجديد فسرحت نفسي باتجاه وسط المدينة ، فكنتِ أنتِ أول اكتشافاتي.

ضحك حتى بانت حافة فمه الداخلية ، غشاء محتقن بلون وردي ، يتوارى خلف نفخات الدخان.

- وماذا تفعل؟ ولماذا اخترت هذه المدينة؟ ولماذا...؟

أشر بإبهامه ، انقطع السؤال ، لقد استرخى الرجل على كرسيه ، صارت يداه طوقاً فوق رأسه. لم يكن شارداً حينما تحدث. عيناه قانصتان وتلتقطان أيما إشارة ، وجهه يتقلص وينفرج تبعاً لحديثه.

ساقاه ممتدان طويلا تحت الطاولة.

- أنا طبيب.

أصبحت إصبعه تنقر على خشب الطاولة نقرات خفيفة على لحن يتوازى مع انسيابه في الحديث. مرات يجعل من علبة السجائر دفاً ، يعطي صوتاً رخيماً ، كنت مندهشة به ولم استمع إلى حديثه ، بل كنت أنتظر نقراته ودقه ، الترنيمة شدت انتباهي. إنها أنغام لم أعتدها من قبل ، جلية ولذيذة وتدخل القلب مباشرة.

شاء أن يتوقف متعمداً ، حزنت لانقطاع النغم ، اقترب جداً مني ، صار فمه يجاور أذني ، جفلت لكني سمعته جيداً.

- من أنتِ؟؟.

رويت حكايتي مختصرة عله يعاود نقر الدفوف ، لم يفعل ، أحس بلهفتي ولم يفعل ، بغتة سألني:

- أين أجد مرقد (سيدي عبد السلام)؟.

- لا أعرف.

باترة ، قاطعة ، جازمة ، وجافة أيضاً عبارتي ، أراد أن ينهض فاستوقفته.

- هلا أدلك على المدينة القديمة؟

رحب ، أنعم علي بالشكر الجزيل ، هو من الرقة إلى لا متناهي الحد ، نهضنا هذه المرة سوية ، خرجت قبله ، وصلت رصيف الشارع فعدت مسرعة ، مسك ذراعي ليقودني أولى الخطوات ثم

أطلق يده عني ، كان إمساك مرفقي مبعث اعتزاز في داخلي ، فلم يفعلها أب لي أو أخ ، أنا الصغيرة الخائفة تسير الآن بحمى رجل كالطود.

سرحنا باتجاه الساحة الخضراء ثم اجتزنا بوابة الطوب فوصلنا باب الترك. إلى اليسار دكاكين تعرض تراثيات وإلى اليمين محلات صاغة الذهب والفضة ، بينهما ممر ضيق وطويل يقود إلى قلب المدينة ، ترتصف جانبيه محلات العطارة ، روائح وبخور وأعشاب وأوان نحاسية وملبوسات وألعاب مختلفة الأشكال والألوان.

المرور بهذا الدهليز يتطلب أن يمسك مرفقي ثانية وإلا ضاع وسط الزحام ، إن طلباً كهذا يجعلني وقحة ، فهل يبادر هو؟ توقف في بداية الممر كأنه يستكشف شيئاً ما.

- أترغبين بشراء شيء؟
- أمي بعثتني لأن أشتري حاجيات حفلة ميلادي.

عندئذ قبض على مرفقي وشق طريقه وسط الزحام ، أنا متعلقة بذراعه وأستوقفه مرات كثيرة ، كنت أجادل البائعة في الأسعار ، هو يؤشر إلى الأنواع الزاهية مما أريد ، تدخل مرتين فحسم نزاع الأسعار ، اشتراكه في المجادلة جعلني أسلم الأمر برمته له ، انتقى ما شاء وأضاف أصنافا فوق ما أطلب.

- هل تحضر حفلتي؟!

باغته السؤال فقرص ذراعي برفق ، وما زالت بصمته منذ عشر

سنوات تزرق مرة عند المناسبة.

لم نتحاور كثيراً أثناء مرورنا في الدهليز الطويل ، اشتريت وأفضت بما تريده الوالدة ، عدت يومها محملة بالهدايا والفرح.

لم أره بعدها إطلاقا ، كان غريباً وبدون عنوان ، مر كطيف جميل في صباح مشرق في أول خروج لي من سبات الدار..

أنا المشدودة دائماً لهذه الذكرى لم أفلح إلا في ضياعها وورقة دسستها خلسة في جيبه أثناء وداعي عند الساعة الرابعة عصر ذاك اليوم المشهود ، كان اللقاء الأول به محض صدفة.

# ٣ـ غائب يوم ثالث

بعد مفترق الجامع بقليل تقع بناية البريد ، مصبوغة بلون رملي كالح ، في الداخل توجد عدة شبابيك ، يفصلها حاجز من الألمنيوم ، القسم الخلفي يتكون من صالة واسعة ذات رفوف حديدية ، تشغل كل الحيز ، وفي المقدمة طاولة خشبية ، يقبع خلفها رجل كهل ، مر الزمان على وجهه فخلق تجاعيد وحفراً ولوناً قاتماً ، إلا إن بشاشته تفرح الناظر ، دائماً ما استقبلني بالترحاب الزائد ، أزوره مرات في الصباح لأحقنه بالمقويات وقليلاً ما أمر عليه ظهراً إلا إذا طلبني ، لا تخلو وصايته عن أدوية تعيد بعض النضارة إليه أو حزم من أدوية لإلتهاب القولون المزمن.

المرة الأولى ، وفي أثناء مروري المعتاد ، إلتقيت الرجل الكهل عند حافة الجامع فأخبرني بأن أزوره ، خرجت منه بكيس ورق مقوى ومغلف جيداً وعليه مجموعة كبيرة من الطوابع ، حتى خلت إن المرسل خسر ماله كله لقاء عدد الطوابع ، ثمة اسم بخط كوفي واضح يتوسط الطرد.

لم أصدق لحظتها إني أستلم رسالة ، من البديهي أن لا أحد

يراسلني ، تحسست محتويات الطرد ولم أخمن. لهفتي دفعتني لأن أفض الغلاف أمام موظفي البريد ، لقد اقتعدت كرسياً وسط الصالة الواسعة من مكتب بريد النهضة ، تشاغلوا في أوراقهم لكني أجزم إنهم أكثر لهفة لمعرفة محتويات الطرد الواصل إلى فتاة منسية في مكان منزو من العاصمة ، الفتاة لم تقدر الموقف حقاً ، فلم تعتد الهدايا من ذويها وصاحباتها ، إنها في الحقيقة لا تعرف أكثر من أختين تنامان معها بنفس الغرفة ، مرتبكة حركت أصابعي بعدما دسست يدي في الكيس ، ثمة شيء أملس وناعم كالحرير ألتقط بالأصابع ، على مهل وفي تأن وحرص شديد سحبته.

طرفه برز من شق الطرد ، لونه وردي ، تتخلله بعض الورود الصغيرة ، سحبت أكثر فشهقت ، أربكتني المفاجأة فسقط الطرد عن حضني ، طالعه الموظفون بابتسامة عريضة وعيون مدهوشة ، تلك النظرات أراها كل مرة أدلف بها إلى بناية البريد.

بعض من العاملين صاروا من مريديي والبعض الآخر أحيل على التقاعد ، لعشر سنوات أمر فيها تغيرت الوجوه ، لكني واظبت بأن أجعل سري في بطني ولم أخبر أحداً بما كان الطرد يحتوي ، ثمة من راهن براتبه لقاء المعرفة ، حتى إني في زيارة ما لهم دفعوا لي مبلغاً مالياً كبيراً مقابل أن يكون أحد المراهنين على صواب ، ظل الأمر أمامهم لغزاً وقد استلمت بعده مائة وعشرين طرداً بنفس الشكل وعدد الطوابع.

أختلي مع طردي كل ثلاثة شهور في حمام البيت ، أكشف

محتوياته ، وأدس القصاصة في جيبي لما بعد ، في كل مرة أجد (موديلاً) جديداً لسروال داخلي وحمالة صدر ، الألوان زاهية تنم عن ذوق رفيع ، والنوعية منتقاة بعناية فائقة. أجربهما أمام المرآة وأفرح وأرقص طرباً وأغني كلمات مبهمة ، يتصاعد نغمها من أعماقي.

ظل هذا سري الدفين ولم يره أحد. كذلك الأختان. لا أدعهما تلمحان ولو صدفة ما أكتنز تحت ملابسي.

لكل طرد قصاصة ورق مرافقة ، بعضها أوراق صفراء مهترئة والبعض الآخر بيضاء مقواة ومطبوعة بآلات حديثة ، مائة وعشرون مقصوصة من كتب شتى ، ولم يصادف أن وجدت ورقتين لكتاب واحد ، قصص وحكايات وسير وأغان ، كل واحدة تروي شيئاً نزيراً من سيرة لرجل مشهور في التاريخ ، بالنسبة لي فإن كل الحكايات جديدة ولم أسمع عنها من قبل.

استهوتني الحكايات والأسماء فاستعنت بصبي الجامع لأن ينقب في بطون الكتب ويلخص لي مضمونها.

سره الأمر في البداية لأن يمد يد العون لأخته ، ثم تجلد مبدياً حنقه عندما قدمت له ذات مرة آخر قصاصة وصلت.

- وأين أجد هذه الرواية؟ علي أن أكون منقب آثار كي أستدل عليها.

لكنه في اليوم التالي اختزلها لي تحت عنوان براق (إسطورة الخلق الأولى) لابن طفيل.

حفظت بعضاً من الأشعار التي ترافق الهدية ، لكنها لا ترسخ في الذهن ، أجد صعوبة في التآلف معها ، هي بعيدة كل البعد عن مجرى حياتي ، تحملني إلى عوالم أخرى وفضاءات وفنارات جميلة ، تشدني جاذبية الحكاية وأتمثلها لأيام في حياتي لكن سرعان ما تنضوي وراء الركام اليومي ، إذ ما جدوى إن درويشاً يأمر شيخاً عالماً بأن يبيع الخمر ، زمن الصوامع والعارفين ولى ، وأنا بنت هذا اليوم في بعض من ليالي الخوالي يؤنبني ضميري لما أفعل ، عدم اكتراثي لما يبذله المرسل من جهد بهذه القصاصات جعلني أشعر بالخجل ، لكن.

- يستاهل ، لِمَ يحجب نفسه عني؟

وتناسيت الأمر بعدما استعصى علي معرفة الباعث ، الرجل الهرم في دائرة الطرود كلّ من التعب وأخبرني:

- من الأفضل أن تنسي الأمر برمته ، كل الطرود آتية من داخل مدينة (أويا).

وفعلاً غيبت الموضوع عن بالي ، وظل يسعدني وصول الطرد في موعده المحدد ، لكن الأمر أثير منذ أيام ومن جديد ، لقد كان أخي الصغير بالمرصاد ، هو لم يقلها مباشرة ، في عينيه بانت كالشمس ساطعة.

لقد أثار غيظي عندما أخبر العائلة بأنه اختار كلية الفلسفة ، هرب مني قبيل انتهاء حفلة الميلاد ، لاحقته لحد باب البيت.

- لماذا نكصت عن كلية الحقوق كما كنت تهوى.

توقف ، جمدت تقاطيع وجهه ، صارماً لم أعهده سابقاً.

- اسألي قصاصاتك المخلوعة من الكتب.

إذن ثمة شيئاً يجري من وراء ظهري وأنا غافلة عنه ، تراءت لي الحقيقة جلية ، وعدت تلك الليلة أطالع من جديد مائة وعشرين قصاصة ، أبحث كالمجنونة عما دفع أخي إلى هذا التغير ، فلم أجد.

شعرت بالعجز التام ، أنا أعرف إن الدروس النظرية تتعبني لكني فعلاً حاولت جاهدة.

الحكايات والأشعار جميلة ، لكن ما الرابط بينهما؟ما الذي يكمن وراء هذه القصص؟؟

شعرت بالصداع وزاد الكرى منه ثقلاً ، كنت أنتظر ذلك الذي يريد أن يكون أمام جامع ، بلعت بعض الحبوب المهدئة ولم يظهر ، كأنه يتعمد التأخير ، يحيرني سؤال ، ولابد أن يكون صادقاً معي:

- ماذا وراء هذه الحكايات؟

- لا بد أن تكوني في أولى درجات العرفان..

قال جوابه في اليوم التالي ووعدني أن يسهر معي ليلة ليشرح جوابه ، أخذت كلامه على محمل الجد ، قررت أن أضع هذه القصاصات في مجلد واحد ، مررت على مكتبة منسية خلف السوق ، طلب الرجل مبلغاً نقدياً مقابل التجليد ، ولم أذهب إليه ثانية.

## ٣ـ غائب يوم رابع

ادعى ، والأب صادق في كلامه منذ أن وضع نصب عينيه سورة (يس) وقبل أن ينشئ هذه العائلة ، إنها لم تكن لوثة أبداً ، وليست رؤيا أو حلماً ، بل حقيقة عاشها منذ أجداده الأوائل ، أي نعم إنهم بدو رحل ، لكنهم أيضاً يمتلكون الماشية ، الأرض هي السبب فقد جدبت سنوات طوالا ، لم ينزل فيها المطر ، عاشوا القحط وأكلوا الجيف بعدما نفقت كل مواشيهم ، اصطبروا وصبروا وجاهدوا كثيراً ، لكن السماء شحت ولم ينبت لهم زرعٌ أبدا.

هاجر الأجداد الأوائل حتى استقروا عند تخوم مدينة كبيرة ، خشوا سكان الحضر وظلوا يسرقون الخرفان الضالة حتى اشتهرت منطقتهم بأنها سوق للغنم ، كانت (بني وليد) أرض فلاةٍ فصارت قرية ، جاءتها بعض العوائل ، لم يقطنها الكثير ذلك إنها صارت مرتعاً للصوص وقطاعي الطرق.

الجد الكبير أوصى حفيده بأن يرحل عن هذه الأرض البور ، أوصاه أيضاً بأنه من (السادة) من ذي العروق الأصيلة ، وحرام أن

تستمر العائلة بهذه المهنة الرذيلة.

تلك هي اللوثة التي أصابت أبانا بمقتل ، لقد صدق قول جده الأعور ، وصار يقيناً لديه.

- إنه أعور ، بلى لكنه ليس كذابا.

كان في العشرين من عمره عندما بدأ رحلة البحث عن أصوله ، هام طويلاً ماراً بمدن الساحل حتى وصل إلى (زوارة) ، إنها المدينة التي يسكنها شيوخ الجبل ، دله أحدهم على باخرة مغادرة إلى الشرق وسهل له صعودها.

أبحرت فيه السفينة ستة أيام وسبعة ليال ، طافت مدناً وموانئ لم يعرفها أبداً حتى رست عند أعلى مدينة في الخليج ، وجدها ميناء عامراً بالناس والبضائع.

اعتاد أن ينادوه بالغريب ، والغريب يجتاز المدينة تلو الأخرى بـ(العبارة) ، حفظ ألواحها الخشبية وعدد الحبال التي تربطها ، وصار قائدها صديقاً له.

كان النهر عنيداً لكنهم وصلوا سالمين عند مرفأ ذي قبة زرقاء كبيرة ، كأنها فنار.

- لقد وصلت يا صديقي ، هذه قبة (الكاظمية).

لم يصدق ، الفتى الخارج من (بني وليد) يطالع قبة مذهبة ومرصعة بلآلئ كثيرة وتزينها عناقيد من الضوء ، طاف في الحضرة أخرس ، لم ينطق ولم يسأل ، كان مبهوراً أن جده الأعلى يرقد في هذه الفسيفساء المعطرة والعبقة بروائح شذية ، ظن إنه في حلم ،

لكن لا ، حتى حلمه لم يسترع هذه الأبهة ، دنا منه رجل يرتدي جبة سوداء وعمامة خضراء.

- من أين أنت أيها الطيب؟

الليلة الأولى نام في المرقد يتنشى رائحة البخور ، الليالي التالية حل ضيفاً عند العوائل ، قضى أسبوعه الأول وهو يتنقل من مكتبة المرقد إلى التابوت المسجى والمغطى برداء اخضر ويفصله عن الزوار شباك مذهب ، لم يهتد إلى شيء ، أعانه أمين المكتبة وهو رجل دين ملتح بصوف أبيض خشن.

- يارجل ، سفرك كله تعب.

وعاد يسرد عليه سير التاريخ وولاية الإمام السابع.

- حياته قصيرة ، قضاها في سجن الخليفة ومات مسموماً ، أولاده ارتحلوا شرقاً ، وأنت آت من الغرب ، فأين هي الصلة؟

طعن الغريب في صدره واتكأ يبكي في مرقد جده الأعلى ، ظل ينبش شهرين في أمهات الكتب حتى اقتنع بأن يعود خائباً.

انتظر صاحب (العبّارة) في المرفأ أسبوعاً ولم يحظ به ، حمله صيادو السمك إلى (كراج) الحافلات وأوصوا السائق أن يقله إلى الميناء ، لم يجد أن يشكرهم إلا بالبكاء ، كان خالي الجيب واليد ، مما جعل شكره يبدو مبالغاً في نظرهم.

- نحن أهلك وأنت ضيفنا.

لم يحفظ أسماء المدن التي قطعها فقد كان فكره مشوشاً والحزن

يعصر قلبه ، كل الأحاديث في الحافلة لم يكترث لها ، هو يرى درب العودة مظلماً.

خجله يمنعه من العودة لدياره خالي الوفاض ، تقلب كثيراً على نار الحيرة وعزم أن يبقى في هذا البلد ، لم يغضب أو يتململ عندما تعطلت الحافلة قبيل وصولها المحطة الأخيرة ، ترجل الركاب متذمرين إلا هو ، خلفهم وراءه عند الطريق العام وسرح نفسه في الفلاة ، اجتاز حقول سنابل ومزارع رز حتى وقف قرب شجرة عجوز.

خلع ملابسه وأغرق نفسه في مياه النهر ، أخذه الموج باتجاه الجنوب ، عاود يسبح ضد التيار ، ولما لم يقو خرج إلى الشط ، انطرح تحت الشجرة ونام قرير العين.

أفاق على قعقعة الصحون ورجل كالطود منتصب فوق رأسه ، لملم نفسه مذعوراً ، مد الرجل بساطاً أحمر ورتب الطعام بطريقة أنيقة وقال:

- باسم الله ، تفضل.

استقرت نفسه على رائحة الطعام الشهية ، كان يبتلع الأكل بتأن ، بعض الحياء يؤطر وجهه ما دام الآخر صامتاً ، شبع فشعر بالهدوء.

قضى ليلته بجلسة سمر تحت شجرة آدم ، في حقل أخضر فسيح ، وعلى مقربة منه يلتقي الرافدان ليتشكل الشط ، إلى اليسار من جلسة السمر تلوح من بعيد بيوت المدينة ، ثمة طريق مرصوف

بالقار يربط الشجرة بالمدينة.

- تلك هي مدينة (القرنة).

أشار الرجل ناحية البيوت البعيدة.

- ماذا تعني (القرنة)؟

- اسم المدينة ، وهذه الأرض هي الطينة الأولى وهذه شجرة آدم الأولى ، وإلى الشمال الغربي توجد طبعة قدم نوح ، أنت في عبق التاريخ.

لم يعترض الغريب ولم يسأل ، كان متلهفاً لسماع الحكاية ، كاملة ومنذ البداية ، لم يبخل عليه الرجل الطود ، لقد أفاض بالشرح ، انعدم نصف الليل والرجلان يتحدثان تحت ضوء قمر فضي ، نصف الليل الأخير ابتدأ بسؤال:

- من أي بلد أنت؟

- من بني وليد.

- وأين تقع هذه؟

احتار الغريب ، لكنه انبرى مسرعاً:

- دعني أروي لك حكايتي.

عند انبلاج الفجر أخذه معه إلى المدينة.

- إكرام الضيف ثلاثة أيام .

بقي شهراً يطوف في أرجاء القرنة ، وشهراً يسرح في الحقول وشهراً يسأل عن العمل ، فاشتغل نجاراً في سوق المدينة ، تعلم

الحرفة ببطء ولم يتقنها جيداً فمل منه صاحب الدكان.

- لم يعد لي إلا العودة.

الرجل الطود عرض أعمالاً أخرى لكن الضيف رفضها.

- أنا.. أغنام.

ابتلع بعض كلماته ، هاله أن يصل هذا المصير المهين ، بكى مرة بحرقة ، ومرة بعويل ، طبطب الرجل على كتفه ، أخذ بخاطره وعرض عليه مؤونة طريق العودة. ، غير مصدق تعلق بعنق الرجل..

- لي رجاء عندك.

- قل.

- أستحي أن أعود بدون نسب ، فهل ترضى بي نسيباً؟

- كيف؟

- أن تزوج ابنك من ابنتي ، هذا شرف ونسب.

- ماذا تقول؟ ليس لي ولد بعد ، لدي بنات فقط.

الغريب يضرع إلى السماء:

- الله يرزق ، أول صبي لك يكون نسيبي.

ضرب الرجل كفيه مستغفراً لله كثيراً.

- لحظة. مهلاً. أنت أخبرتني إنك أعزب...

- سأتزوج. سأتزوج ما أن أعود.

ظل الموضوع معلقاً بين الرجلين ، حتى لانت عريكة المضيف بعد واحد وثلاثين يوماً.

- لك وعدي إن رزقت بولد.

قام الآخر يتضرع إلى بارئه ومن ثم استدار يقبل جبين الرجل.

بعد أربعة أيام سأل:

- ماذا ستسمي ابنك؟

فغر الرجل فاه من السؤال ، استدار نحو اليسار ثم اليمين كمن يستعين بأحد.

- اسمه.. مالك الوجد.

- وابنتي.. سأطلق عليها سالمة باستمرار.

رجع الأب مستبشراً بنسبه الجديد ، وقرر المكوث في مدينة **(أويا).**

أنا أستشيط غضباً عندما أسمع حكايته ، يتطاير الشرر من عيني وأتمنى أن أفترسه.

- بالله ، ياأبي ، أليست هذه لوثة؟**!**

يجعر ويزمجر ويذهب لغرفته يقرأ سورة **(يس)** ، بعد ساعة يعود وديعاً.

- سيأتي العريس ، ذات يوم ، ويطرق الباب.

# ٣ـ غائب يوم خامس

- لماذ تشبه المرأة الطين؟

كان سؤاله مدخلاً لسرد سيرته ونحن عائدان في طريق المطار من الصحراء ، استفاض كثيراً في وصف المرأة ، حتى أحسست إنه يتكلم عن امرأة معينة ، في الحقيقة كان يعرج على تكوينها الجسماني وكأن مشرطاً في يده ليشرح البدن والأعضاء ، ورغم إنه خلل وصفه بكثير من المصطلحات الطبية إلا إني أشد لهفة لمعرفة علاقة الطين بالمرأة ، كان العنوان مغرياً مع إني أزعم قاطعة لم أر الطين في حياتي ، فأرضنا رملية وجافة.

هو وصف الطين بطريقة أقرب إلى عجينة ساحر ، يقف عند جرف الشاطئ في وقت انحسار المياه فيغرف ملء كفيه من الغرين الذي انجرف عنه الموج ، يضعه في مكان ناشف وينقيه من الشوائب ، أحيانا تعلق به بعض أوراق الشجر الساقطة وأحياناً يحمل زبد النهر الطافي ، يختار الكمية التي تناسب لعبة اليوم ، فهو يخرج إلى النهر صباحاً ويعود وقت المغيب.

يبدأ الهرس بأصابع ممدودة وأطرافها تلامس كتلة الطين اللينة ، يدعكها بقوة ويقلبها عدة مرات حتى تستوي عجينة ، لا يترك فراغات فهذا يفتت الطين لاحقاً ، يتركها لبعض الوقت تحت أشعة الشمس كي يتبخر ماؤها فتصير كتلة متجانسة ، عندئذ يبتدع خياله ما يشاء من الأشكال.

في بدايته الأولى كان ينحت وجوه حيوانات آنسها في الحقول ، ولكن عندما كبر قليلاً وصارت يداه ماهرتين تعود صياغة وجوه بشرية ، ثم عرج على صياغة أجساد النساء ، أول امرأة صاغها من الطين كانت أمه ، يقول إنها احتفظت بالنصب لحد هجرته.

بعدما اطمأن على استحسان والدته على ما صنع أصبحت أصابعه أكثر طواعية وبتلقائية تعودت العمل ، بات ما يصنعه في النهار يهديه مساءً إلى سكان المدينة ، لقد اشتهر وذاع صيته بأنه النحات ذو الأصابع الذهبية في (القرنة).

لما صار غلاماً أخذته الهواية إلى منحى آخر ، فلم يعد نحت الأشكال يستهويه فدلف إلى العمق ، ينحت امرأة من الداخل ، بنسغها وعروقها وفنارات التكويرات الباطنية.

في البداية استعصت عليه الفكرة ، أنى يكون هذا حقيقياً؟! ، لقد احتار في الأمر كثيراً ثم اهتدى إلى شبكة الري في الحقول ، نظر إلى السواقي وتشعباتها ثم إلى الأنهر الصغيرة التي تتفرع من النهر الكبير وكيف يتم بزل التربة وتكوين الطين ، شبكة رهيبة اختزلها في دماغه وحولتها الأصابع إلى منحوتات جميلة.

- ألهذا أغرمت في صدري ، في الصحراء؟

- صدقيني ، ياآنسة ، إن تكوين الشدي يشبه تلك الشبكة من الري.

- وتركيبة الجهاز التناسلي؟

كنت أسأله ملاطفة.

- أيقنت إن ما كنت أنحته في صباي كان صحيحاً يوم كنت طالب طب ، جسد المرأة مثل دورة الحياة بين طين الجرف وشبكته الفرعية من الأنهار الصغيرة ، الرب خلقنا من الطين.

- إذا كنت نحاتاً ماهراً فلِمَ ذهبت إلى الطب؟

- كان علي أن أكتشف الحقيقة ، منذ الأزل ونحن بشر ، لكن كيف تحول الطين وصار بشراً ، دروس التشريح وعلم الوظائف خلقا قناعاتي الحياتية.

- لكنك تبدو كمن يهوى الخلوة.

- بلى ، عندما خلق آدم أول مرة لم توضع عليه قيود ، كان يرعى في البرية ويعيش خلقته الأولى.

- دعني أسألك لماذا هاجرت من بلدك؟

- كانت قسراً.

اختزل الجواب ، في وجهه ارتسمت ذكرى أليمة ، تقلص الجبين وانعقد ، كآبة رنت في الصوت ، كان عذباً وذا ترنيمات محببة عندما انطلق في أول حديثه ، تحولت الكلمات عند الهجرة إلى

قذائف تطلق الشرر ، مر على تواريخ كثيرة ، بعضها معروف لدي والبعض أجهله ، لم يكن ينوي الشرح ، بل صار السرد كالبرق ، يمرق سريعاً من جملةٍ إلى أخرى ، وكأنه يحاكي ألغازاً ، في مكمنها تنام الثعابين.

الصبي الجميل الذي لعبه الطين والسارح في القول ، صار رجلاً ، يحيطه الهم ويحمل حقيبته ، مثل السواح ، في مدن شتى.

لقد أمره أبوه بالرحيل ، لسبب ما أصر الأب على الهجرة ، كانت العائلة تحيط بفتاها الرائق ، عند المغرب ودع على عجل. أوصله أبوه إلى طرف المدينة الجنوبي.

- إذهب في أمان الله ، ها هي الحدود الدولية ، حاول أن تمرق بسلام.

لم يبك ولم يخف ، لقد أهدى ضابط الجوازات قطعة نادرة من تحفة ، وظل ساعة يشرح له من تكون هذه المرأة ولم هي جميلة ولماذا شعرها يشبه حبة قمح.

لقد كان عليه في تلك اللحظة أن يدرك الحقيقة كاملة ، فقد خلف وراءه وإلى الأبد الأنهر والطين والأهل.

- لم أكن خائفاً من الغربة ، إنها قاسية ولكن وجدت سبيلي بيسر.

- إنك ، والله ، تشتتني بهذه الطريقة ، لحظة..

أزدرد ريقي وصوبه أنظر:

- دعني أستوقفك بسؤال: متى انطلقت إلى الغربة؟.

هدأ قليلاً ، أسارير وجهه انفرجت ، بأن الإسترخاء في صوته ، كمثل الذي عانى ضيماً ثم اجتازه ، لقد اجتاز المسافر المحنة وانطلق إلى الوهج.

ذكر تاريخاً محدداً بالساعة واليوم والشهر والسنة ، صعقني التحديد الدقيق ، وأيضاً لما يعنيه لدي:

- إذن أنت تنطلق إلى الحياة الرحبة وأنا أدخل حبيسة الدار ، أهذا عدل؟

حقاً أنا زعلت ، وبان التجهم على وجهي ، كأن طائراً قبض على قلبي ، أوقفت السيارة لحظتها في طريق المطار.

- هذا هو الغبن ، تولد قبلي بعشرة أعوام ، تقضيها فرحاً بلعبك وأنا حبيسة العدم ، تتسلى بتشريح الثدي وأنا مرعوبة ببروزه أول مرة في صدري ، وها أنت تختمها بهذا التضاد الغريب.

ضحك الرجل ، وظل يضحك بمرح ، لم ينقطع حتى شاركته ، ضحكه المتواصل جعلني أتبدل رويداً من الحنق إلى الصمت ثم مراقبته وهو يضحك حتى أوصلني إلى مشاركته ، كان لطيفاً وامتص غضبي بواحدة من شذراته المبهجة.

وحتى يدخل البهجة إلى قلبي حول البقية إلى أناشيد ، تأتِ ترنيمات من دفوف غير مرئية بيد إنها ترافق إيقاع السرد.

انتقل الطبيب من الحر إلى البرد ، وصار الطين بهجرته كرات الثلج ، لقد ساح من الجنوب نحو بلاد الشمال ، غنى لي موالاً لما

رأى الـثلج أول مـرة وعـزف بأصـابعه علـى دف ، حينمـا تمرغـل في الجبال الباردة ، ثم أردفها بإذكار مجلجل لتجوله في مدينة جميلة.

لقد أصبحت سيرة حياته أغاني رائعة ، أنشدها لي طوال طريـق العودة من الصحراء حتى (دكة) العيادة التي غفوت عندها.

## ٣ـ غائب يوم سادس

البيت خال ، فتشت غرفه ، السكون يخيم عليه منذ الصباح بعدما قررت العائلة السفر إلى (بني وليد) ، لقد أصاب الوالد الإختناق ، أحس إن صدره لا يسعه ، شعر بالضيق أولاً ثم طلب هواء ، أخرجته الزوجة إلى باحة الدار ، جلبت مروحة من السعف لتجمع الهواء ، هي تردد لا شعورياً:

- اسم الله.

أستند بعد قليل على الحائط. مد رقبته إلى الأعلى ، زال بعض البياض من الوجه فشعرت الزوجة بالراحة ، كانت العائلة تشكل نصف قوس حوله ، مذهولون لما أصاب الأب ، ثم اقترحوا عليه زيارة الأقارب ، كان يريد الخروج من الإختناق ، رحب بالفكرة ، استعدوا وغادروا عند الصباح.

أنا الوحيدة التي ترفض أن تكون هنالك بقعة اسمها (بني وليد) فلم يسألوني ، ولم أفكر إطلاقاً ، لقد ساعدتهم في حمل بعض الحقائب ، عند باب البيت ودعتهم ، ثم أغلقته فلم ينتبني

حس بالفرح أو الحزن ، كنت مجردة تماماً من أية مشاعر ، إنه أمر معتاد ذهابهم إلى هنالك في بضع سنين مرة.

أغلقت جهاز الهاتف لأشعر بالسكينة يوماً بطوله ، استرخيت تحت الشمس في الباحة ، في جلستي المفضلة ساعة ، أنشدها كل حين ولا تتاح ، لكنها أيضاً اليوم جاءت قصيرة على غير العادة ، لم أكن أفكر بأيما حاجة في تلك الساعة بيد أني فجأة شعرت بالنشاط فنهضت.

ذهبت إلى المطبخ أعد شاياً ، تراجعت عندما وجدت بعض بتلات الزهور أمامي.

- إذن ، هيا إلى الطقس.

في داخلي فرحت ، لقد كان الورد دائماً مصدر سعادتي ، الناس تتزين به وتشمه ، أما أنا فأجعله (لطخات) هذه بعض من سراري الخاصة.

قربت (جرن) الخشب وفرطت أوراق الورد فيه ، ثم فرعت به رمانة ، تناثرت حباتها الحمر الشهية ، أضفت لها مكعب سكر ، الجرن الثاني أضفت فوق الورد عسلاً وقرن فلفل حار ، حملتها إلى الحمام ، تأكدت إن الأبواب موصدة بإحكام ، نفضت عني الثياب لأبدأ الطقس ، بوجود العائلة أبدأ الجرش بتأن ، أنا اليوم وحيدة فلا حياء من الغناء مع دق الجرن.

أتربع عارية على بلاط الحمام وأمامي تهبش يدي صاعدة نازلة وبرتابة تناغمت مع الغناء ، في البداية كنت أجأر ملء فمي لكن

الرتم بدا ينزل رويداً ، كأن صلواته تلبستني فأصبحت أرددها.

- دقوا ((المهابيش)) خلو الهوى جنوبي.

ساعات من الغناء والجرش حتى استوى عجينة لينة ، لطخت صدري من الجرن الأول والحوض من الجرن الآخر ، استلقيت تحت سقيفة الدار لا أروم شيئاً ، أطالع السماء فقط.

عند المغيب بدأت تتشقق العجينة ، ذعرني نهداي ، العصافير تفرش ريشها لتحلق ، في الحوض اشتعل الفرن فلدغني.

- آن الاغتسال.

أوقدت الفحم لبدء الشواء ، أشتعل بوهج فذهبت أستحم ، كانت النار قد استوت لما خرجت مبللة ومعطرة كأنثى ، ارتديت أجمل ثيابي استعداداً لعشاء فاخر تحت ضوء القمر. استغنيت عن الإضاءة بفتلة شمعة كبيرة ، قطعت اللحم إلى قطع صغيرة وأنضدتها بسيخ.

الهواء في فسحة الدار منعش ، بعض الرطوبة عالقة ، الظلام ساد في الفضاء ، الشمعة ترافقني ، كان وهج الفحم جميلاً ، جلست قباله على كرسي ، وكرسي آخر بجواره خال.

- أما آن لك أن تعود.

ستة أيام من الحزن ، مستوحدة وحزينة ، ملني الإنتظار ، أتصيد بعض الأخبار عنه ، لم يشف غليلي خبر.

- سيعود.

لم تعد كافية ، الكل يتفاءل ، أنا الحزن أكلني.

- هذه الوليمة لك تيمناً.

أمسح الحزن عن وجهي وأبدأ الشواء. ، منظر النار يغري بالإندماج ، أرفع سيخاً وأضع آخر ، حبات الطماطم تتفتق من السخونة. أعددت الأطباق فوق مائدة من البلاستك. أضأت الشمعة من جديد ، كوب من عصير محلى وآخر فارغ ، وزعت الشواء على صحني وصحنه ، وقلت للكرسي:

- تفضل.

طرق الباب ، مرعوبة ما دام الطرق متواصلاً ، لو كان أبي هنا لقال: جاء العريس الموعود.

لم أخف ، مريدوي كثيرون ولن يجازف أحد بالسرقة. المفاجأة جعلتني جليسة الكرسي ، نط الطارق من فوق السور ، الظلمة أغشت الهابط في قعر الدار ، إلتفت ناحيته:

- من؟؟

- أنت. من؟ أسفري يا من تجلسين في الظلمة.

كان هذا أخي عليوة ، لطمت صدري من مفاجأته.

- لم تذهب مع العائلة. لحظة. منذ أسبوع لم أرك.

- تقصدين من يوم الأحذية العالمي.

أضحكني ، فعلاً حضوره يعيدني إلى عفويتي.

- أين كنت؟

- أقرأ. أدرس نظرية الفيض. أنا جائع ، هل لديك عشاء لأخيك الأصغر؟

اعتادت عيناه الظلمة فاستبانت أمامه المائدة ، جال في المكان ، لف دورة كاملة ، جلب كرسياً ثالثاً وصحناً جديداً ، لم يعلق ، ثمة ابتسامة حلوة تلوح في محياه ، ملأت إناءه ، بدأ يأكل ، ينظر إلي ثم إلى الطعام ، سرق قطعة لحم من صحن الكرسي الشاغر.

- عرفيني عليه.

انهمك في أكله ، كأنه لم يتفوه ، سأل عن العائلة وفقر الدم المزمن ثم علق على الجلسة ، امتدح ضوء الشمعة ، تشهى طعاماً أكثر ، فمد يده إلى النار يشوي من جديد ، حرك جمراتها فالتهبت ثانية ، رمى قطعة شحم فتعالى الدخان ، ذهب وعاد حاملاً أعواد بخور ، عطر الجو برائحة زكية ، دفعها باتجاه منخريه وسحب شهيقاً عميقاً ، استدار نحوي ، أراد أن يقول شيئاً لكنه عدل عن ذلك .

- ماذا بك؟ تود أن تقول...

- لا. أبداً ، مشتاق لك.

ثمة ارتباك في حركته ، شيء ما يثقل على صدره ، أعرفه يافعاً وغضاً ، لكنه في الفترة الأخيرة تصلب عوده ، بانت فجأة عليه ملامح الرجولة ، لقد خط له شارب خفيف ، شعر ذقنه ينبت خفيفاً ويتجمع عند الزلف بكثافة ، إلا إنه ما لبث قصيراً ، بعض الإنحناء في جذعه العلوي ، عود خيزران كان يطلق على قامته.

يجلس أمامي ضائعاً في الكرسي ، ضآلته تعد مشكلة لفتى يدب نحو الرجولة ، لقد أنهى طعامه:

- سوف نغرق جميعاً في الوحل.

نادراً ما أهتم بمثل هذا الشأن العام ، لم أكترث لكني شجعته على الاسترسال ، أورد وصفاً دقيقاً لما حل في محطة مجار قريبة.

- إن لم يدارك الخراب فسنجد الوحل في الشوارع قريباً.

دائماً ما تهب على منطقتنا الروائح العفنة من هذه المحطة ، فنحن سكان الربو الشعيبي ، وأبي الجرس الرنان لهذه الروائح.

- ليس بجديد ، لكن قل لي: هل غيرت اسمك؟
- بلى.. أنا جنيد البغدادي[٢].
- ما هذا الاسم المركب..؟ مش حلو.

---

(٢) صوفي، قبره في بغداد.

# ٤ـ التأسيس

لعله يأتي اليوم ، أمني النفس بعودة الغائب ، انقضى أسبوع ولم يظهر ، الأخبار المتواترة من العيادة لا تبعث على الإرتياح ، البعض يتهكم على البناء ويعتبره قن دجاج والبعض الآخر يعزو الغياب إلى الأحداث العامة.

في داخلي بعض القلق لكنني أشعر حقيقة إنه لابد آت ذات يوم ، لم يطل الغياب كثيراً حتى أيأس ، لقد مضى أسبوع بعد رحلة الصحراء ، وأرى إن ثمة متسعاً من الوقت ليحزم أمره.

المدير أجرى بعض التعديلات ، بعدما شاعت التسمية ، فأصبح قن الدجاج ذا أرضية رخامية ، جلب ستائر جديدة ذات ألوان رملية وقد طلى الجدران بلون رصاصي غامق ، مما زاد من عتمة الجو ، أنا جلبت زهوراً وأشجار زينة ، شكلت ممراً مورداً إلى غرفة الطابق العلوي.

اشتريت لوحة لغزال شارد وعلقتها فوق الكرسي وفي الجانب المقابل علقت حديقة فيها نصب لامرأة تسكب ماء جرتها ، المنظر

أخضر يجلب البهجة إلى الناظر ، طاولة الفحص تغطت بمفرش مطرز ، حياكة يدوية ناعمة ، وفوقه سجل كشف للمراجعين ابتدأ بتاريخ ماض.

فيما مضى وقفت عند مفترق الجامع حائرة ، ثلاث سنوات خلت ، بعدما دفعت نفسي قسراً خارجة من البيت لا ألوي على شيء ، إذ لم أكن أعمل وكانت تلح علي صورة واحدة منذ مدة ، ماذا سأفعل بعدما حصلت على شهادة التمريض؟ لم أكن أبداً يجول في بالي أن أبدأ المشوار من جديد ، لقد قطعت شوطاً طويلاً في مضماري وآن لي أن أجني ، فلن أفرط بعشرة أعوام من الجهد والتقصي أن تضيع سدى.

كانت عائلتي تتوقع أن أجد عملاً في أيما عيادة بسهولة ، لذا لم يشدوا من عزمي بتاتاً ، يظنون إن خبرتي تؤهلني بيسر للحصول على الوظيفة ، أنا جاهدت أن أبني سمعتي في مربع منطقتي ، من حي الأكواخ غرباً إلى شارع الشوك جنوباً ، وبقيت أنتظر أعواما عل أحداً يبادر بفتح عيادة في المنطقة ، ولم يحدث ، كان إحباطاً حقيقياً ، عشت كنفه واحترت في أمري ، حتى برقت الفكرة مثل وميض البرق وأنا واقفة حائرة في مفترق الجامع.

- أبادر أنا في التأسيس.

لا أعرف كيف جاء الخاطر لي ، أنا واثقة إن هدفي كان هذا ، سأكون فيه سيدة التمريض بلا منازع ، وشهرتي تطوف كل بيوت الحي ولا شك.

أمضيت ذلك النهار وقد صادف زيارة المقهى السنوية ، بوضع الخطط لمشروعي القادم ، كانت فكرة طيبة واقتناصها هي العظيمة ، بعض الشروحات التفصيلية وقفت عائقاً لكن إصراري سوف يذللها.

مساءً اقتنصت الفرصة وأنا أزق إبرة أنسولين لامرأة تدعي المرض جبراً ، فاتحت زوجها بالفكرة ، له علاقة وطيدة مع المرض إذ أصابته الحكة منذ كان يشتغل في مصافي النفط في ((الدمام)) ، لم يعد يحتمل الهرش فقرر العودة إلى دياره مكتنزاً امرأة سمينة تهوى الأمراض وصرة كبيرة من النقود.

أهل الحي يتندرون عليه بتهكم ((أجرب ومدعي)) عندما تشتد عليه الحكة يبدأ الصراخ ، فقررت مرة ، منذ سنوات أزورهم ، أن أجرب طريقة ما لتخفيف معاناته ، ومن ساعتها صار أحد مريديي المقربين.

- ما رأيك ، أن تنشئ عيادة في هذا الشارع؟

لم يفكر ولم يتردد ، بل سارع بالموافقة مقابل تعهدي:

- أي. نعم ، سأهرش لك كل صباح.

يعلو صراخه ومن ثم ثرثرته قبل الساعة العاشرة إن لم أمسد صدره وألاعب شعيراته البيضاء.

في اليوم التالي وقد خرجت من البيت بحجة البحث عن العمل ، قطعت الشارع عند الحد الفاصل بين البيوت الواطئة والفلل الجميلة ، لطالما مررت من هنا ، أشيح وجهي عن بناية

خربة ، تخالها مأوى فئران ، لكنني قررت اليوم متعمدة أن أطرق بابها ، فخرج إلي الرجل:

- خيزران نظام الدولة.

اسم غريب وكريه ، وكل أهل الحي يتجنبونه لسطوته ومكان عمله ، أنا لست جديدة على أهل الدار ، لطالما أجتنب الرجل رغم إلحاحه المستمر ، لكن زوجته هي التي تبادر باللوم إن لم أزرها. كان الرجل يعاني من حالة صحية صعبة ، إنه خال من الأمراض ، لكن أنامله تشكو البرودة ، وبحجة قياس الضغط يمتص الحرارة من أطرافي الساخنة باستمرار ، مرة يلامس يدي ومرة تصطدم يده صدفة بساقي ، كان يعتبرني الدواء الشافي لبرودته.

لم يفكر ولم يتردد بل سارع في عرض بيت الفئران مع بعض التصليحات لأن يكون عيادة.

أكون قد أنجزت المهمة إن وافق الطبيب الذي ذهبت لزيارته في معهد التمريض والذي وفر لي شهادة التمريض المزورة.

لقد مانع في بداية الأمر ، وادعى أن سلك التدريس يوفر له السيولة الكافية.

- لكن لك بيتان ، واحد هنا وآخر في((إمبابة)) ، ولا يمنع من أن تزيد مدخراتك.

فكر قليلاً ، ثم سألني فجأة:

- كيف فقر الدم عندك؟

إنه حتماً يلمح إلى مواظبتي المستمرة وغير المجدية من علاجه لمرضي المزمن.

- البقعة السوداء صارت هالة.

أصر أول مرة أن يحقن إبرة الدواء بنفسه ، كشفت الفتاة عن عجيزتها أمام طبيبها ، تحول مكان الإبرة إلى بقعة سوداء ، كانت صغيرة في البداية ثم كبرت واتخذت أشكالاً شتى ولم تستقر بعد على هيئة معينة.

لم يغرم رجل بلطخة سوداء على فخذ فتاة ، مثله ، لقد صارت هاجسه وهام فيها شوقاً حتى غدت أطيافها تراوده في الليل ، يتجنب زوجته ليحلم بمداعبة البقعة ، يشعر بالإرتياح إن حدثته ولو همساً عنها ، لعابه يسيل مثل لعاب طفل ، يوم وراء يوم يتمنى رؤيتها ، لقد أمسكت البقعة بخناق الرجل وغنجي أمسك بهوس الرجل وكنا كائنين مرتبطين بخيوط سوداء من بقعة تتوارى خلف الثياب نهاراً وبعضاً من الليل.

فكر وتردد ثم وافق الطبيب ((عرفة عراب الزمر)).

تحويل بيت الفئران إلى قن دجاج تطلب مني أن أخلع ردائي واعتد البنطلون في الوهلى الأولى حسبت نفسي صبياً مما ضايقني كثيراً ، تلك المرأة القابعة في الأعماق أنت ، كأن عقرباً جاورها ، كانت تنمو متسارعة وتكبر ، حتى إنها في الغالب تخرج من جلدي وتعلن عن نفسها ، شذرات يلتقطها الفتيان فأغدو محط أنظارهم ، في غالب الأحيان يلاحقني شاب طالباً التقرب ، أنا لا أهوى هذه السماجة

لقد وطنت نفسي أن أفتح وأغلق النوافذ بما أشاء ، معادلة حسابية صعبة المراس ، لكن تعودها رواد الشارع ، عندما أكون مشرقة والبهجة تملأ وجهي وأنتقي ما أهوى ، شاب يرتصف الطريق ، أو يحتسي القهوة في دكان ، يشعر في إشراقتي فيطلب لمحة من ابتسامة أو رمش حاجب ، أتيح له مسافة لأن يلاحقني حتى بوابة المجمع الصحي ، يبادلني حديثاً متقطعاً ، فينضم في اليوم التالي إلى رتل المريدين.

غايتي القصوى من هذا العبث الصبياني كل صباح ، أن أطبق نظريتي في صناعة المرض ، بالتأكيد سيعتاد المرور على العيادة يدعي المرض ثم يدمن على المشوار.

أرتال المريدين أتفرغ لهم من الثامنة وحتى العاشرة صباحاً. وقت عملي مقسم بشكل دقيق ولا يشوبه انحراف ، يبتدئ بصبية زنجية ، تستقبلني بابتسامة عريضة ، نابعة من أعماق قلبها حالما تكون سعيدة وخاطفة مصطنعة لما تكون خالية الوفاض ، لم أع ذلك الفرق حتى اقتنصتها مرة بالصدفة ، جئت مبكرة فوجدت فتى يرافقها ، كانت تسعى حل جديلة ملتوية مثل ذيل كلب ، الفتى يلهث ويلح الإستعجال ، لم تصدق إني أمامها أراقب ، خرت ساجدة تطلب الصفح ، تحولت بعدها إلى الليونة وغدت تتبعني وتطيع.

أنا لا أمنع من نزول المطر فأرضنا قاحلة وشققها العطش. أتفرغ فيما يأتي من الوقت لتنظيم زيارة المراجعين ، وأنتهي بحك الشعيرات البيضاء التي تهرش صدر المدير.

أنا أمارس مهنتي بنوع من المتعة ، بهجة للحاضرين وإنشودة تجديد لي ، يفرحني أكثر حضور الشاب المختار لذلك الصباح ، يظل ينتظر مثل تلميذ وسط الطابور ، عل تتاح فرصة أكبر له ، أراقبه وأرى اشتعال اللهفة في داخله ، تتأجج وتنطفئ ، يغادر بحزن وأمل ربما تأتي به الأيام القادمة.

أصعد إلى الطابق العلوي ، أقضي ساعة ونيفاً في ترتيب وإعداد أجهزة الكشف ، في تلك الساعة تتحول (عائشة) إلى الحارس الأمين للبوابة الرئيسية ، والمدونة لأسماء المرضى.

عند نزولي ثانية إلى الدور الأرضي أميل إلى الإسترخاء أمام التلفاز ، أسمع أغاني شبابية وأراقب عروض التجميل ، ترافقها تعليقاتي الساخرة على المشاهدة:

- المرأة تبتدع جمالها.

عائشة تطلب تغيير جلدها باستمرار ، ترى إن لونها غير جذاب ، أعلق على لهفتها:

- إسلخيه تصبحي بيضاء

ذروة العمل تبدأ عندما أدخل إلى غرفة الكشف ، أرافق الطبيب وأنوب عنه بالكثير من الأعمال ما دام قد وثق في خبرتي ، ريثما يأتي الوافد الجديد فإن نظامي الدقيق باق.

هل أنسى اليوم الأول..؟ الفتاة الشاطرة حملت حقيبتها من البيت وجرت مسرعة ، عند البوابة تذكرت أن المفتاح نسيته في البيت ، عادت تجري ، ناسية حرصها ومنظرها على امتداد الشارع ،

كانت مرتبكة وخائفة ، تلهث وراء صنم اسمه النجاح. إذاً اجتازت مرحلة التأسيس فإنها وجدت الصعوبة في بدء العمل ، لقد أثقل الأرباب الثلاثة كاهلها بتحمل مسؤولية الإدارة ، كانت تستمد صمودها من الرغبة الصارمة في النجاح.

حلت مشكلة المفاتيح وسينسى لها رواد الشارع إنها تجري بدون وقار ، لكنها وجهاً لوجه ماذا تفعل في الأجهزة ، لا تعرف كيفية التشغيل ، ولم تسأل ، تنوء تحت مهام فوق القدرة ، جلست وحيدة في رحاب صالة الدور الأرضي تبكي ، تعالى نشيجها وقتاً كأنها في دوامة.

- أرجوك.

بلعت بقية رجائها ، كانت تناجي غائباً ، لم تره إلا مرة ، وفي الملمات تستنجد به ، تعي جيداً أنه لا يسمعها لكنها تأمل أن يلهمها لحظة صفاء.

- أرجوك.. ساعدني.

زاد بكاؤها مع انقطاع الرجاء عند هذا الحد ، شعرت إن فيضاً من الهم يتدفق على لسانها ، بيد إنه ضاع ، كانت الدموع هي الأسرع.

استعاذت من شيطان رجيم ، وضمنت أن تبدأ من الأسهل ، دب النشاط فيها فجعلت المكان لائقاً ، توافد بعض المرضى صدفة فنسيت حزنها.

لم تمر بهذا الإرباك يوم ابتدأت ببيت الفئران ، لقد أعانها الرجال الثلاثة في اليوم الأول للإعداد ، كان يوماً ماطراً لكنهم توافدوا.

- هذا خيزران نظام الدولة ، مالك البناية.
- هذا وهاب السلف الصالح ، الممول.
- وهذا عرفة عراب الزمر ، طبيب العيادة.

مدوا كفوفهم يتصافحون ، اثنان استبشرا خيراً بالمطر وبالمشروع ، صاحب الأطراف الباردة أرعبه المطر فقال:

- أمل أن لا يكون نذير شؤم.

كانت اللغة الحوار بينهم متهتكة وغير لائقة برجال يلتقون للتو ، لقد تشاجروا وتخاصموا ودب الخلاف حتى وصل القطيعة ، بشطارة الفتاة التي تريد النجاح التقوا ثانية وهي الحكم الخفي ، وزعت الحصص بشكل مقبول ، فارتضوا مقابل سواد عينيها.

انتزعت المال بصعوبة ، مثل قارورة ماء سدها الجير فمدت كفيها تجمع القطرات.

كانت تأمل الكثير وتحلم بديكور راق ومكان لائق ، لكنها استطاعت أن تعمر شيئاً ، حتى بعد ثلاث سنوات اقتنعت:

- شيء أفضل من لا شيء.

كانت تفيض على المشروع وتغرقه بالأمنيات ، لكنه بقي دون المستوى ، ارتضت بأن تضع أولى الخطوات في الدرب الواسع ، الفكرة كانت للرجال الثلاثة مكاناً لتجسيد الحلم ولم يتصوروا أن الفتاة مغامرة وتسعى وراء حاجة في نفس يعقوب.

- أقبلي يا حياة ، هلمي. نستقبل الآتي ، فهذا زمني. الزهراء

في برجك وهذا ربيعك ، مرحى بالطائر المغرد في الأفق.

ترنيمات صارت تهدهد نومي ، أرقد في أحضانها وأكتشف إن لكلماتها إبهاراً يخلب اللب ، أهيم فيها وأتوسم بشاشتك ، أنام وأستيقظ على نسغك ، أنا أستعد هذا الصباح لملاقاتك ، وأرتدي أجمل ما أقتني.

- ((كانت ثيابي علي غربة قبل جيتك))[٣].

ياللبهاء ، ما أجملها من ترنيمة تفتتح صباحي ، أختار من الطرود الأزهى ، أضع شالاً حشيشياً فوق جديلة ، ضفرتها طالبة الإعدادية وما زالت ، قميص وردي يندى بزهرة زئبق على التنورة بلون البرتقال ، وضعت بعض المساحيق ثم مسحتها.

- ((يا ليلة من ليالي البنفسج ، ياعطر- عطرين)).

أنا أرقص يومي هذا ، النغم يتصاعد فيطرب له الجسد ، منسجمة مع ذاتي ، تعزف لي فأشدو لها فرحاً وعيداً هو اليوم.

أخرج من الدار مبهورة بسحر الترانيم التي لم تتوقف ، من شاهدني في الزقاق والمفرق والشارع ظن إني احتفل بمناسبة ، لم تستوقفني الدكاكين ولا الفتيان ، حتى بنات المجمع سمعن بعض ما أغني.

- ((ترخص وأغليك وأحبك)).

شهقت عائشة وسألت:

---

(٣) من قصيدة (البنفسج) للشاعر مظفر النواب.

- بأي لهجة تغنين؟ أنت غريبة اليوم ، لكن مزهرة.

لم أتوقف عندها ، بل دلفت غرفة فيها مرآة ، أبصر افتتان الغناء على وجهي ، تورد واتسع للنشوة التي تهزني ، المكان خال ومرتب ، وضعت لمسات أخيرة على درب الزهر.

ابتدأت اليوم من الطابق العلوي ، الطاولة والستارة ، الكرسي والهواء المنعش ، أبسط كفي علامة الرضا. مر نصف ساعة ولم يأت ما زال الوقت مبكراً للقلق ، بعض من الزوار توليتُ أمرهم الفتاة.

قرأت فرحتي ولم تود أن يعكرها طارئ ، صفقت أصابعها العشر ، جالها الصمت إجلالاً للترنيمة ، هزت ردفيها ، رقصة قصيرة تشاركني الفرح ، عادت تحمل دفأً ، نقرت مرة ثم أخرى. اختلف النغم ، أصغت السمع جيداً لتضبط الإيقاع ، أصابعها أجادت العزف ، أنا أوقف الغناء ، نثرت شالي ورقصت ، فسحة الغرفة الخالية الأثاث صارت حلبة ، فتاة تتمايل وزنجية تنقر. مرحنا حتى لهثنا ، أطالعها. كانت فرحة بي ، وجدت حضني يتسع لها ، امتناناً همست بمودة:

- سيأتي ، سيأتي أنـ...

أصابها الخرس عندما أشرت إصبعها نحو الباب ، مثقلة من الهول ، أسدلت جفونها ولم تقو حراكاً ، استدرت ، كان الباب لظهري ، نصف انحناءة ونصف قيام فتسمرت.

كان يبتسم ، عقد لساني ، لو إني قادرة لاندفعت إلى حضنه ، لو إني زحفت مستغلة وقت الذهول لطلته ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، هي لحظات تقف دورة الحياة فيها ، هو حركها ، دنا خطوة

ودنا ، اقترب فلامست أنفاسه وجهي ، مسك اليد وجرني من الغرفة ، صعد بي من الأرض إحدى عشرة سلمة ، إلى الأعالي يقودني أربع أخر ، كان الطابق يناهز الفضاء علواً ، ضغط برفق فأفقت على إيقاع الهمس:

- أنا هنا ، ثانية.

كنت أقف عند الغرفة وهو عند الباب.

- أنا في منزلة العشق ، هل تسمحين....؟

- يا إلهي.. يارب.. الثبات ، أن تحملني ساقاي

ياإلهي... ، لن تحملني ساقاي.

- لم أسمع بحياتي طلباً كهذا.

بدا الضوء يعبر جسدي ، أنا بلور تجتازه أشعة الشمس.

- لم أعتد مثل هذه الرقة ، إرحمني ، أرجوك.

كانت رحمته بأن طلب قهوة ، تحركت بخفة طائرة بغير وزن تدفعها رياح الفرح.

لم أكن أغلي البن ، بل وضعت وجدي في فنجان ، أذابته حلاوة اللقاء ومعزتي برجل تتشربه الرقة.

جعر وهاب السلف الصالح يطلب الحك ، أغاظني صراخه ، نهرته وأخذته مع الفنجان إلى الطابق العلوي ، تعانق الرجلان ثم تعارفا ، ثمة إيماءة في حركة الطبيب تنبئ باصطدامه بشيء ، أشاح وجهه وبدأ حديثاً فاتراً ، كنت حاضرة فأنا الممرضة التي ترعى طبيبها.

أرتشف من القهوة ، بلل وجهه بابتسامة شكر ، أشعل سيجارة فجاءتني رائحتها أحلى من العطر ، تنشقت وملأت رئتي من الدخان ، الرجلان يحتظر الحديث بينهما وأنا أحيا بعبقه ، هل كان يتحسس وجودي ، لم يرتشف ثانية ، بت أعي حركاته جيداً ، يود التلذذ بمفرده وبمعية السيجارة.

طردت نفسي والمدير من الحضرة ، نزلنا نتجاذب حواراً عن انطباعه ، لم يخف لكنه مرهوب:

- فيه شيء ، ليس منا هذا الرجل ، طينته تختلف.

أفاق من تسرعه ، ظن إنه أخطأ:

- اختلطي به أكثر ، أنا محايد.

لم أخذ رأي وهاب على محمل الجد ، الحك يزيده قتامة ، ستتوالى علي نظرة الآخرين تجاه هذا الوافد الجديد.

بنات المجمع قدمن أولاً ، ثم ممرضات الفترة المسائية ، أنا أقود الأفواج إلى الدور العلوي ، البعض أطال المكوث وتبادل أطراف حديث ودي ، البعض الآخر أظهر الإعجاب من أول وهلة ، خرجت بتسميات عدة له:

- شدة الورد ، غصن الريحان ، طبيب الهمس.

ممرضة أثنت عليه وطلبت منه:

- هل أعتبرك أخي؟

أنا فخورة ، أنتشي وكأن المديح ينثال علي.

وضع جدول حضوره وانصرف ، لم يودع أحداً ، كنا شلة بنات في الصالة نثرثر ، مرر الجدول إلي ، كنت أريد أن أشيعه إلى البوابة ، إيماءته كفتني الرغبة.

هل كنت أحلم بمثل هذا اللقاء؟ أبداً ، لقد أفاق الرجل أمنياتي.

كان جدول مواعيده من الدقة بحيث إني استغربت من فطنته لي ، أتاح لي يومياً عشر دقائق قبل العاشرة صباحاً وربع ساعة عند انتهاء العيادة ، تململت في البداية وثرت إذ ماذا تكفيني هذه الدقائق المعدودة ، فأنا أحرق مدينة بشوقي إليه ، لكني صبرت نفسي ، إن الزمن القادم سيكون لي ، حاولت أن لا أغير كثيراً من نظام عملي بانتظار مرور الأيام ، حتماً سوف يتسع وأعيد ترتيب أوراقي من جديد ، كان يشغلني انتظامه في المجيء ، لقد قطع مثل هذا الوعد عندما عدت أراه كل صباح ، تتنور البناية بطلته عند الساعة العاشرة ، أكون قبلها قد رتبت أعمالي.

انهمر المراجعون عليه مثل مزاريب مطر ، لبهرته الجديدة وحضوره وصناعة الموت أتت أكلها ، سنوات من السعي أثمرت ، كانت البيوت تتناقل الخبر المبرق:

- طبيب ، مثل باقة ورد ، جديد.

هل كنت أعد العدة بأن لا يخلو من مريدين؟ لم يكن هذا قصدي ، بل جل ما كنت أريده هو أن يطمئن فيمكث في عمله ، لطالما هرب أطباء من قلة المرضى ، أنا اخترت له هذه النقطة ، عشر سنوات أتنقل في الحي وأجمع مريدين ، أبتكر نظرية جديدة

وأطبقها ثلاثة أعوام في عيادة قن الدجاج.

- هلمي أيتها الجموع، لقد جاء المنتظر.

كل صباح أضع يدي على قلبي مخافة أن أخذل، أجدهم جمهرة يتقاطرون، لم يذهب تعبي سداً، لقد قطفت ثمرة جهودي. الفتيان وعشاق اللهو كانوا في المقدمة، بعضهم يبحث عن سحر القادم الجديد، من لم يبهره أقنصه أنا بعد الكشف وبكلمة ناعمة أعيده إلى الحضيرة.

النساء يأتين بعد ساعة من الكشف، في البداية كن ذوات أمراض السكر وروماتيزم العظام، ثم تقاطرت حديثات الزواج.

- اضطراب في الدورة، تأخر في الإنجاب.

غصن الريحان فاح عطراً وعلق في الأهداب، أحس بعض الهمس وبعضاً من حكايا الأمنيات، لكني أجزم قاطعة ما دمت لا أفارقه، إن الأحاديث جميعاً من خيال خلق، المريضة الغنجى يتركني أتولى أمرها، يأنف أن يمد يده على متصابية أو امرأة لعوب، كان يعترض ويأخذ شكل السيف الباتر.

- أنا جئت لأعالج.

يغسل يديه وإن لم يمسس مريضاً، في بعض اللحظات بين خروج ودخول مريض آخر يتأفف:

- ما هذا؟، أنا لست مرقداً للزيارة، أنا أعالج، أين المرضى الحقيقيون؟

أتجنب الإجابة ، أعرف إن الامر يزعجه ، لكن يا طبيب الهمس ، هذه هي الصناعة ، أنا هيأتها لقدومك ، فلم الإعتراض؟

- ثمة خطأ ما.

لطالما أرجع ثمن الكشف إلى المراجع.

- لا يشكو من شيء فلم يدفع نقوده؟.

يستغرب وأنا أدفن وجهي بعيداً عن البوح ، حينما يغضب ألامس الرقة فيه فيهدأ ، ويبدأ الدورة من جديد ، أدخل عليه أحداً ، أمكث بجانبه ، أخرجه من غرفة الكشف ، أصطاده على انفراد بابتسامة عريضة ، يدفع النقود بطيب خاطر ويرغب في العودة ثانية في يوم قادم.

لهذه المحادثة مع الزبون برهة من الزمن تساوي استراحة لغصن الريحان ، يتمطى فيها ، يرفع الكسل من جلسة الكرسي أو ينفث غضبه مع لفافة.

كثر مرضاه ، كل يوم يزداد العدد ، ولم يعد يتاح لي الوقت ، لا في العشرة المبكرة ولا الربع ساعة المتأخرة ، لم أمل ولم أتأفف ، كنت سعيدة بوجودي جنبه طوال الصباح ولأني لم أعد خائفة من انقطاعه ، إذا لم يبادر ويفعلها هو.

أنا أبدأ ، أطبع قبلة الصباح على شفتيه ، أبثها كل شوقي ، حالما أطبق فمه على شفتي ترتعش الدنيا في ، هو لم يكن يطبع القبلة كما أشتهي ، لا يتقطر منها الجنس ، بل تأخذ شكل شذرات ذات طاقة ، إشعاع يتسرب إلى جسدي فيعيد إحياءه من جديد ، يقول دائماً:

- المودة قبل الحب.

إن احتاج جسدي في لحظة ما شحنه ، امتداد الهالة ، كما يسميها ، فإني عامدة وأثناء العمل أحتك به ، تبدو صرخة في وهلتها الأولى ، لكن أن أتلصق الفخذ به ، أو أضغط على قدمه فإنها تصير عارمة.

يمضي الوقت معه سعيداً وممتلئاً بحكاياتي الصغيرة ، هو يعدها إعادة ضخ الدم في العروق اليابسة ، لو إني اقتنصت واحدة فإن ذلك اليوم يكون بهيجاً.

وجدت العمل معه مسلياً يمضي سريعاً بدون رتابة ، كل حين يتجدد ، ذا شجن مبتكر ، بتنا ثنائياً مشهوراً ، بذلت جهداً جباراً كيما يطمئن ويستقر وقد حانت لحظة التفرد.

آن لي أن أعرف حقيقتي في الحي ، لم يمانع عن إقتراحي ، الزيارات المنزلية كانت الحجة ، أنا راغبة بأن يرى الفتيان اختياري ، أملأ عيونهم دهشةً وحسداً ، الصبية التي اشتغلت عاملة نظافة والفتاة التي تمرق كل صباح في الشارع ولم يصطدها أحد ، هي الآن تخرج حاملة حقيبة طبية وبرفقة طبيب مثل غصن الريحان ، أمام مريديها تشبك ذراعها خلسة معه ، وأصحاب المحلات يسترقون السمع لأيما حديث ، يخلب لبها وتبدو هائمة وعاشقة ، إنها تعلن عن اختيارها جهراً وبدون مواربة.

قطعت معه نصف الطريق ، كنت أتمنى أن أمتلك الجرأة فعلاً فأمسك ذراعه ، كنا ذاهبين لتفقد امرأة عجوز تعاني التهاب المرارة ،

بعد العبور بمحلين توقف أمام قصاب ، تتعلق جثث الخرفان في الواجهة ، توقف ثم سألني:

- أتعرفين. ما علاقة القصاب والكلاب؟

سؤال غريب يطرح على فتاة في حالة النشوى ، وتتباهى بمن يسير بمحاذاتها ، وتريد أن تملأ النهم في عيون الناظرين ، أنا لم أتعود منه الثرثرة إطلاقاً ، صمته مؤيد وحديثه موصول بالروح ، ولا يعبث بأشيائه.

كنت أقول إني عرفته جيداً ، أدرك خلجاته وسكتاته وإيماءاته ، لكن ما زلت غرة ، فسؤاله أثار بي رعباً ، كإنه يقتلعني من جذوري ويرميني إلى الفراغ ، لم أكن أفكر في الجواب بل بما بي من نزاع آه. ليته لم يقل. ، انبرى:

- دائماً درب الكلاب على القصاب.

توقف ، يزيد الطين بلة إن فسر ما يقول.

- القصاب خبيث ، يرمي عظمة إلى كلب ، يلتقطها عل شيئاً من اللحم فيها ، لكنه أيضاً يعتاد الإنتظار ، يقضي أيامه بانتظار القصاب لأن يرمي عظماً آخر.

إنه ، والله يصف ما يحدث بشكل دقيق ، لكن إلى أين يصل؟

- لا خطأ في كلب يشتهي عظمة ، والقصاب لديه عظام كثيرة ، فما الحل؟

لو إن قطة أكلت لسانه ، لو إنه ظل صامتاً كعادته لراق هذا

الجو الصباحي ، توقف بعدها ولم يتكلم بتاتاً ولأيام تالية يطالعني بعينين تبصران إرباكي واضطرابي.

- أنا لم أشتغل قصاباً.
- وبعد؟!
- الدنيا هكذا ، فيها القصاب والكلب ، وفيها أنت حتى تروي الحكاية.

نصف جملتي الأخيرة جعلته مرحاً وقلته بغنج ، أنثى تدلل في الهوى.

تلك الليلة كانت حالكة الظلام في سريري وأنا أنقلب فوق الجمر ، لم تغف لي عين ، ساهية وساهرة أقلب أمري ، أنا موضوعة أمام معادلة صعبة.

- هل أتفرغ له ، وحده وأطرد عشاق الصباح؟

في ذلك الصباح وأنا مسهدة الجفون أقتطع نصف ساعة صباحاً ونصف ساعة ظهراً ويوماً في الشهر يتنزه بصحبتي وبدل قبلة الصباح اليومي إلى دفء حضنه عند الظهيرة ، جعل الحضن مرقداً وطمأنينة لوساوسي ، وأردف مع التغيرات مقدرته على تبصير الأمور.

ماذا يفعل بي هذا الرجل؟ هل ما يفعله يناسبني؟ أنا اعتبرت التغير بادرة رائعة منه وبقيت أحسب تكيفي مع المرحلة الجديدة من حياتي.

أنا قاب قوسين أو أدنى من القرار الصعب ، لولا مشادة حدثت صدفة في العيادة.

نقلت للطبيب غصن الريحان تذمر خيزران نظام الدولة ، مع ملاحظة بعدم الإصطدام معه تجنباً لشروره ، بيد إنه لم يتزحزح عن رأيه:

- إن برودة أصابعه مرض نفسي.

منذ سنة بذل أقصى جهد في فحصه ، أعتبر إن لا علة يشكو منها ، فدورته الدموية وقلبه في وضع سليم ، لكن خيزران لم يسلم وأعدها إهانة مقصودة بعدم استقباله ، يجعله في مرات كثيرة ينتظر مع طابور المراجعين ، وعندما يلتقيه يتبادلان حديثاً مملاً ، تلك المقابلات تشتتني. كنت أطمح لإيجاد حل لبرودته وأتخلص أنا من سماجة احتكاكه ، توسلته مرة:

- أرجوك ، جد علاجاً لأطرافه.

نهرني ، وعد رغبتي نوعاً من الدجل.

- لست مشعوذاً ، أنا رجل علم ، إنه يفتقد الإستواء النفسي ، وكفى.

استمر خيزران بمنواله ، يتنشق حرارة أطرافي ، لقد زاد وجعه وصار يمر مرتين كل يوم ، الأولى لقياس الضغط والثانية لينفث غضبه باتجاه الطبيب.

- أنتِ مغررة ، إنه (خردة).

- لقد طبقت شهرته كل الأرجاء.

أحاول جاهدة تلطيف الجو وذهبت محاولاتي سدى ، فالعلة فيه متأصلة ، لقد فجرها عندما ادعى بحكاية غريبة ، استدعاني الركنان للتشاور ، وهاب السلف الصالح سأل:

- هل حقاً ما يقال؟

أنا كذبت الحكاية ، كنت حاضرة معه في الزيارة العائلية ، طلبت المريضة أن يكشف عليها منفردة ، ثمة ألم ينتابها متقطع في الظهر ، الطبيب رفض ، كنت أجس له موضع الألم ، مما دفع المريضة لأن تشكو غلظة أصابعه.

عرفة عراب الزمر تولى بقية الحديث ، ينفث سماً باتجاهي ، اشتكى كثيراً ، واعتبر سلوكي غير نظيف.

- أنتِ المسؤولة عما يجري ، لقد انحزت إليه ، حتى المرضى انقطعوا عني ، أين الإنصاف؟ ، أنا من سعى واجتهد حتى استقام العمل ، سنوات أكافح وها أنت تجيرين الأمور لصالحه ، ما الذي جرى؟؟

إنه عتاب مر ، اللوعة بانت في طريقة نطقه ، يرتعش جسده مع كل مقطع ، كان مستعداً لأن يواصل هجومه لولا مقاطعتني:

- مثل البقعة السوداء.

هد الرجل من المباغتة ، جبل ثلج فهوى ، كأن ماء بارداً سكب فوق لهيبه فانطفأ ، لم تكن تعوزني الدراية لما وصل إليه ، في الآونة

الأخيرة قطعت أخبار القطعة عنه ، يبدأ بالملاطفة ثم يتحول إلى التساؤل وينتهي بالتوسل ، لا أدري لم تصرفت هكذا ، هل كنت أشوقه أكثر أم أطهوه على نار هادئة؟ لو إنه سمع إشارة واحدة عن بقعته المفضلة لما تأزم ووصل إلى حافة الإنفجار ، لقد كان يشكو الضمأ وأنا معذورة منذ اتخذت شكل وجه بشري ، أمست تتشابه مع الوشم الذي يطبع كل جسدي ، اشتهاها مرة علانية:

- دعيني أراها.

لم يكن ذلك ممكناً ، أنا واثقة سيخر صريعاً من شكل الوجه ، فمن غير المعقول أن يصير ما يحلم به كل ليلة ملك غيره.

ركنت المشادات على الرف ، غصن الريحان لم يكترث لما حدث ، تعليقه في اليوم التالي جاء مثلاً:

- كل كبش ينطح بقرنه.

تفهمت المثل جيداً بعد ساعة وجدت في ثناياه وصية ، أن أنأى بنفسي عن هذا الشأن ، عندما استفسرت لم يؤكد ولم ينكر.

- أنت فتاة يافعة وليس من اهتمامك (الشأن العام).

لقد رمى القنبلة ، لم يفجرها ، بل دحرجها ، أصابتني بالخرس جرأته.

وعما يعرف ولا يقول ، في كل مرة أشعر إني خبرته جيداً ، يفاجئني بالجديد دوماً ، ما في جعبة هذا الرجل جعلني حذرة.

الأمور تأخذ منحى آخر ، في اليوم التالي حمل لي هموم مدينته ثم عرج على إذكار ، سرد قصصاً موغلة في القدم ، حديثه شيق وأنا

أستمتع بـه ، عندما يلج المقامات يتحول إلى إنشاد ، يتصاعد مـن روحه فيض نور ، ويتأطر وجهه بهالة فضية.

نصف العام التالي وأنا أتشوق على نار هادئة ، به أرحل إلى منازل العرفان وحياتي سائرة نحو التأزم ، أحس بأن خيوط نسيجي تلتف على رقبتي ، تشابكت العقد واختل نظامي الدقيق ، فثمة أكثر من معرج صادفني ، وإن كنت سالمة باستمرار إلا إني في الحقيقة شعرت بالوجل ، علي فك التشابك ، جئت إليه بيوم جديد بوجه جديد:

- إسمعني جيداً ، أنا أتلظى على نار ولم يعد يكفيني حضنك.

رويت له بعضاً من قصص السهر ، العراك الليلي في سرير بارد ، وبعضاً من الرغبة التي تجرفني وتمزقني ، وطلبت بمنتهى الصرامة والدقة:

- طاردني.

أسترد أنفاسي:

- عش معي هذه اللعبة المفضلة.

ثم بحسم أضيف:

- هكذا تستقيم الأمور.

كأنه لم يفاجأ هز رأسه:

- ما زلت صبية تلهو.

أنا أنضح جنساً من كل جسدي ، ما أن يقترب غصن الريحان حتى ينز مشرئباً نحوه ، الأطراف تبدأ الرفيف ، وأقرب كرسي يداري إرتجافاتي ، الذراعان بتلقائية يمتدان ، وكأن مغناطيساً يجذبهما ، يبدأ الخفقان في الصدر ، عضو تزداد ضرباته ، آخران يستيقظان ويمتلئان ويبرزان ، يضغطان على الحمالة فأداري حركتي تحت الشال ، مرة أرفعها ومرة أخلعها فاسحة المجال لنشوتهما ، ريثما أدنو فإن حوض المعدة يضطرم ، تلطمه الأمواج ، عند قبلة الصباح وحتى حضنه أكون قد استويت تماماً ، وبدأ المطر يهطل ، برعشات متتالية ، ألملم جسدي ، مخافة أن أهلك.

هو يشعر بكل اختلاجاتي ويداويني بإيماءات كالبلسم على الجرح المفتوح ، يقربني لحظات فأصطلي ، هي مرات معدودة عندما يحضن كفه نهدي ، بعجالة يبدأ الحركة ثم يستريح هنالك ، أطالبه أن يترك آثار أسنانه:

- هذا هو الدواء ..
- هل رأيت عصفوراً يعض؟
- إنه حبة رمان فأفرطها.

يمتص الطعم من الشفة فيهدأ بركاني ، لقد ذبت شوقاً ولمدة عشر دقائق فيه ، أختلس أيما برهة كيما أحتك بساعده أو كتفه ، تلك الشذرات تنزل آخر الندى على حرشفي.

يمنحني وبصدق بعض الأوقات عوضاً جميلاً عن صخبي ، كان جسدي ينتفض عن إرادتي ويبدأ الخور ، يطحر كفرس أثقلها الصهيل

وبات عواء ، بذلت جهدي لكي أجعله أكثر طواعية ، لكنه يأبى.

ألمح له وهو البارع في التقاط الإشارة ، ينظر في عيني ، لا يتكلم ولا يومئ ، إنما بصر حاد يخترق الحدقة ، يدخلني من قمة الرأس ويتشرب ثناياي ، يحيل رخاوتي إلى غراء ، ألتصق وأغدو مشدودة القامة ، أصير فتاة فارعة الطول ، أتشبع فأرتوي فأسدل جفوني.

أنا لم أعرفه بارعا في هذا حتى اعتدت قوة بصره ، حاداً ونافذاً يوقفني ، يطلب عدم الحراك ، يسلط حزمة إشعاع تتسرب رويداً من مآقيي إلى أنحاء الجسد.

أعلن رفضي في نهاية الدوام عنداً له ، وأشعره بأن الطريقة عقيمة ، يظهر مدى تأثره بانكماش وجهه ، أشفق على انكساره لكني أعاند ، لبوة تريد أن تجرح.

- أمامك مشوار كيما نصل الأخيلة.

ينسحب وأنا ألومه ، أولول وراءه ، يسمع ضجتي ، ينزل السلم متثاقلاً ، وخوف أن يهرب ألحقه مسرعة عند استدارة السلم:

- وجودك هو الجنة ، أنت تملأ علي حياتي.

أتحول إلى اللطف ، بمحبة أنزل معه إحدى عشرة سلمة ، أمضيها بلوي ذراعي على خصره أو أضع يدي فوق الأكتاف وأدفعه برفق.

في النهار التالي أبدأ ثانية ، أزداد اضطراراً ، أتقصد إثارته ، حتى تحول عنادي إلى رغبة على إرغامه مما دفعني مرة أن أطلب منه مطاردتي.

لكم أشتهي هذه اللعبة ، شرحت له كيفية إجادتها ، الفتاة الممتنعة

وهـو المتفجـر رغبـة ، يريـدني في غرفتـه فـأهرب إلى صـالة الطـابق ، يلاحقـني فـأفر نازلـة السلم ، يبحـث عـني ولهاثـه يتحـول إلى فحـيح ، يفتش الدور الأرضي ، غرفة وراء غرفة ، يقتحم الأبواب ، لا يطرقها بل بعنف يدفعها ، الفتاة تختبئ ، يتعب من التنقيب ، فينادي طالباً إياي بإلحاح ، علو صوته يعادل رغبته في امتلاكي ، لن أخرج من مخبئي وإلا فسدت اللعبة ، من يرغب عليه أن يتعب ، يستدل بلهاث أنثى أضناها الشبق ، من وراء دولاب يخرجني ، لا ينتظر، يمزق الثياب ، الفتاة تطلب التأني قليلاً ، لا يسمعها. يطرحها عنوة على الأرض ، يرى عريها فيهجم أسد على لبوة. أعددت المسرح للعبة وشاركتني عائشة بمراقبة البوابة ، أخبرته بالوقت المناسب ، منذ شهر أنتظره أن يشاركني رغبتي.

لم يبادر ، تمنعت أسبوعا عن العمل معه ، حنقت كثيراً وتمنيت خنقه ، أن أفعل شيئاً جسيماً يثير حفيظته ، نزل آخر الأسبوع يسأل عني ، هللت فرحاً وبارتباك حاولت الإستعداد لبدء اللعبة لكنه وجدني بسرعة ، قادني من ذراعي ، ثمة مريضة كانت على سرير الكشف تنتظر ، رفضت لكني إكراما لخلقه النبيل بقيت في الغرفة أحضر الكشف.

لم يعد بد من اللدغ وأريده أن يأتي إلى حضيرتي ، خرجت صباح اليوم الثاني إلى مسرح الشارع ، أعيد دلالي على الفتيان ، افتقدت بريق الشارع فترة فأخذني الحنين إليه ، تأنقت ولبست ما يظهر مفاتن الأنثى.

- مستهترة.

سمعتها بوضوح ومن جديد أعادتها الأخت الوسطى ، لم أتوانا عن شتمها علانية أمام العائلة.

عند مفترق الطرق تهيأت للجولة ، مرقت بعدة محلات ، مرق عدة شبان في المقهى ، استقبلني الفتيان بترحاب واحترام مبالغ فيه.

- ما الذي جرى؟!

كرهت شرب العصير المحلى ، خرجت اصطدم عنوة برواد الشارع ، عبرت إلى الجانب الآخر ، صادفت شاباً اعتدت غزله منذ أمد ، قال. ففرحت قبل أن ينطق:

- ما للجمرة اليوم منطفئة؟!

إذن هذا الذي حدث ، عندما توقف آخر مرة في الصحراء وقبل أن يستلم طريق المطار ، أطفأ الجمرات لما مد يده وضغط مرتين.

- ابن الملعونة!

اشتعل الغضب في ، لابد أن يأتي صاغراً ، انتظرته دهراً واقتنصته عند البوابة ، جرجرته مسرعة نحو الطابق العلوي ، دون أن يلقي التحية أو يفعل شيئاً قلت له:

- اغتصبني.

مشدوهاً متفاجئاً ، لكنه كان رزيناً.

- يسمى: إلتصاق ، إلتقاء أمزجة.

توقف ، يبحث عن كلمة أخرى:

- يسمى: وصال معنى ، هالة تتجانس مع هالة أخرى.

أنا أسرع ، أضرب قدمي على الأرض وبإصرار:

- لا. ، اغتصبني.
- سنخرج سوية في نهاية الأسبوع.
- موافقة. شرط أن تغتصبني.
- لا. بطريقتك. لا.
- إحذر... سأدمرك.
- لا عجب ، فالغل ولد معك.

إنه يقتلعني ، يحش جذوري بالتمام.

- إلى ماذا تلمح؟

انتهى الحديث بوعيد مني ومهلة يومين.

هو يريد كما في حكاية الشيخ جلال الدين ، أن يعيدني إلى الطينة الأولى ، أنا العنيدة لم أرتدع عن قسوتي ، أنتفض عني جسدي ، بمكر البنات جربت مرات ولم يتحرك لأي كان ، أفرح بهذا السفر وأعد أن الأنثى نضجت منفردة وأنا ما زلت ، كما كنت ، فتاة اختطت لحياتها رسماً بيانياً وأبت أن تحيد عنه ، أحزنني هذا الإنفصال ، هو من قادني إلى الإنشطار.

- أنا أكذب على نفسي.

لقد تشبثت الفتاة بالغرين ولم تبرحه ، بذل غصن الريحان جهوداً مضنية فلم أرتو ، كنت أطبق عليه نظرية أهلي ، إعتقوني فضاع الزمام.

هل كنت محكومة بفلك قادني إلى حبل مشدود؟ وعلي اجتيازه باقتدار. أستعين بحياتي ورغباتي فيغدو الأمر واقعاً ، لم يحدث مرة إن خسرت رهاني ، دائماً أفوز ما دمت سالمة باستمرار ، ذلك هو حرزي ، القوة التي تلهمني النجاة ، جربتها كثيراً وأفلحت.

- سيكون مطاوعاً.

لدي حدس ، لن يتركني ما دمت أذقته الأخيلة ، لقد جالها وأستعذب دغلها والكهف ، هو يدرك وقد أوصلني إلى بوابة الفردوس ، إن القطاف آت لا محالة.

- آنى للفارس أن يهرب من الحلبة ، آنى للفارس أن يفارق مهره؟؟!

مطمئنة أقضي أيام الإنذار ، ساهمة لكن في داخلي هدوء ، أنتظر على أحر من الجمر إيماءاته صباح اليوم الثالث ، دلف البوابة وصعد إلى طابقه العلوي ، عائشة أخبرتني إن في صوته رنة مبهمة.

- لا أدري ، هل هي بحة أم حزن أم إنه مريض؟

توافد المراجعون عليه ، نظمت دخولهم الفتاة ، أنهى عمله بعد ساعة ورحل ، لم ألتقه ، كنت في غرفة مغلقة وتتواتر الأخبار علي منقولة ، أصابتني الخيبة بمقتل فدعوت خلية الأركان الثلاثة ، تصبرت ساعة ، قدم وهاب يلهث ، وخيزران متوتراً كعادته وعرفة جاء كطائر يرفرف بجناحيه.

شكوت لهم سوء سلوك غصن الريحان ، تحاوروا كثيراً واتفقوا أخيراً على ذبح الرجل كخروف بدون شفقة.

انتشرت الإشاعة بسرعة ، يومين فملأ صداها الأرجاء ، أنا قررت عدم الذهاب إلى العيادة في اليوم التالي.

جلست منذ الصباح في المجمع الصحي أراقب ، مضى بعض الوقت والممرضات يطلبن بإلحاح دخولي ، كانت عيناي ترصد حركة الشارع ، دخل طبيب الهمس عند موعده ، بعد ساعة توقفت سيارة شرطة ، ترجل ثلاثة أشخاص غلاظ ، الأصفاد تلمع لضوء الشمس ، اقتادوه إلى السجن بتهمة التحرش الجنسي.

عندما وصلت البيت وجدت والدي ينتحب ، الوالدة اخبرتني إن قبة مرقد شريف ، من تلك التي زارها في رحلته الشهيرة ، قد فجرت[٤].

في تلك الأثناء قررت وقبل انبلاج الفجر أن أستل سكيناً من المطبخ لأذبح أبي ، أقطع دابر اللعنة التي حملتها قبل ولادتي.

---

(٤)حدث الإنفجار في ٢٣ فبراير ٢٠٠٥.

# ٥ـ المهبط

هبت ريح جنوبية على المنطقة ، الحوض السفلي للهضبة كانت تعلق فيه ومنذ أيام رطوبة عالية ، امتلأ الجو برائحة خانقة ، تتكاثف على علو يلامس أطراف البنايات مما أشاع جواً من الكآبة ، في البداية كانت الرائحة عفنة ، تحمل روائح القاذورات من المحطة الجنوبية بعدما أغلقت بوابات المجاري ، ثم رويداً اختلطت الروائح ولم يعد ثمة مجال لتميزها.

الريح وفرت سرعة انتشارها لتشمل كل الأرجاء ، لكن الرطوبة هي التي أمسكت بخناق الناس ، مما زاد من معاناة الربو الشعيبي.

هي ليست المرة الأولى التي تهب فيها الريح ، فلطالما كانت تأتيهم مباغتة ، لكن هذه المرة كانت أشد وطأة ، اذ من النادر أن تحل في فصل الخريف. فالرطوبة تتكاثف أيام حر الصيف ، ولقد اعتادها الناس بالهروب من المنطقة إلى الأحياء الداخلية ، رحلة العودة إلى المزارع ، فكل سكان المنطقة وفدوا وقنطوها عندما حدثت الهجرة الكبرى أوائل تأسيس الدولة.

تعد المنطقة من الأحياء العشوائية التي نبتت في أطراف المدينة عندما لم يمنع أحد سكان الألواح من أن يتحولوا إلى بناء بيوتهم من الآجر ، بعيداً عن الأعين صار السفح الجنوبي السفلي من الهضبة حياً سكنياً. لم يصدق أحد إن مكب القاذورات لمدينة (أويا) يتحول فجأة هكذا.

عند أول هبوب للرياح أدرك السكان إن الإختيار للمكان كان فاشلاً ، وذلك إن الربو رافقهم من البدء ، وأصبح المشكلة المزمنة ولم يعد ثمة مجال غير رتق الثوب كلما ازداد الفتق.

تداركاً للأزمة أقيم مستشفى ضخم عند الرابية وبدأت تنتشر المراكز الصحية في أركان المنطقة السكنية.

تلك المستشفى لم تعد مؤهلة لاستيعاب عدد مرضى الربو ، فاضطر الناس إلى البحث عن طريقة تداو في المنازل ، كثرت وصفات الأعشاب حتى عششت في الأذهان.

لم يكن صدفة أن يروج بسرعة لهذه الأعشاب ، فقد تنادى بها السكان بعدما أشاعها شيخ الجامع واعتبرها جزءاً من الأيمان ، لكن الحقيقة إن مكبرات الصوت المتحركة فوق عجلات هي من نشرها.

ظلت سيارة ، تحمل المكبرات تطوف المنطقة منذ الصباح وحتى انتصاف الليل ، يقودها شاب كان في الأصل بائع ألبان ، ولما لم يفلح في عمله تحول إلى مروج دعاية ، اختزل خيبة أمله من مهن متعددة مارسها ، بأن اعتبر المهنة الجديدة أكثر حيوية وأسخى عطاء ، ذاع صيته بيسر خاصة مع اشتداد هبوب الرياح ، ينادي في الشارع الرئيسي

وفي الحـي وعنـد مفـترق الجامع ، فيتقـاطر عليـه النـاس ، يـسألون عـن الأعشاب وثمنها.

- أنا لست المداوي ، أنا مندوب دعاية.

لم يكن يكذب ، إذ انتظم بهذه المهمة بناء على اتفاق مسبق ، كان مجزياً بالنسبة له ، لم تكن متطلبات حياته واسعة ، فهو فرد من أسرة تتألف من ثلاث أخوات وثلاثة إخوان ، وكل الذي يساهم فيه من دخل الأسرة أن يتحمل عبء مصروفه اليومي ، بناءاً على هذا لم يوفق في محل الألبان ، فالمردود ضئيل ، وصاحب المحل يلومه باستمرار على إهماله:

- أنت تحشش ولا ترعى الدكان.

ولم يتفاجأ عندما حاوره آخر مرة ، كانت الجدية ترتسم على وجه الرجل:

- لقد صبرت عليك كثيراً وأخفقت كثيراً ولولا توصية أختك لما احتملتك كل هذه المدة.

سكت ، كان يبلع ريقه.

- دعنا نتفق من جديد ، إن ساعدتني من التقرب لأختك فستبقى تعمل معي وأزيد راتبك.

- هل تريد أن تخطب أختي؟

- بلى ، أنا أريدها منذ فترة ، أنا مؤهل لأن أكون كفؤاً لها.

لقد حببه لي أخي الأكبر واعتبر تشابه الأسماء ليس صدفة إنما

طالع سعد يلوح في الأفق.

- أنت تهزأ ولا شك.

- أبداً ، أنا عبد اللطيف وهو لطفي.

توقف ثم أشار إلى كنزه:

- لاحظي التطابق.

أنا ارتضيت أن ألتقيه ، لم يك الإتفاق معه صعباً ، فقد كان مطاوعاً وأبدى استعداده لتنفيذ كل طلباتي.

أتاح لي معرفته بمنافذ التهريب تلبية حاجاتي من الأعشاب ، إذ ازداد الطلب كلما أوغلت الغمامة في مكوثها ، ولم يتسن لي متابعة أموري الخاصة ، ذلك أن توافد مرضى الربو ملأ كل الأوقات لفصل الخريف.

السيارة ومكبرات الصوت استغلها أخي لترويج بضاعته الخاصة ، فلم أسمع يوماً منه اكتراثه بصناعة الألبان ، بل زاد مدخراته من الحشيشة ، تفاجأت أنه تحول من مشتر إلى بائع وكنت أظنه قد هجرها ، لكني لم أعنفه كثيراً ، فلا وقت لمثل هذه المشاجرات.

أنا أتوقع أن ثمة اتفاقاً مبرماً بين اللطيفين ، من يستغل من؟ تركته للأيام القادمة ولم يخطر ببالي إن سحب الرطوبة سترابط ثلاثة أشهر ، اختنق الناس ولم يعد متسع للهواء ، وسميت أعشابي بهذا الاسم تيمناً لما يتمناه السكان.

- هواء رقم واحد ، هواء رقم اثنين.

كنـت أبيـع الهـواء لـسكان المنطقـة ، اعتـادوا التـسمية بـسرعة واعتادوا المرور علي للشراء.

الغمامة انقشعت بعد حين ، مخلفة وراءها الروائح العطنة ، ولم يعـد بيـع الهـواء مجـدياً ، فلجـأت إلى بيـع معطـرات الجـو ، منافـذ ((لطفي)) لم تشح يوماً بوجهي وكان هو مـن الفرسـان الأشـداء في سلوك هذه الطرق.

مع كل وجبة يسلمها لي يبادر بالسؤال:

- متى أتقدم لأهلك؟

أنا كنت أماطل عسى أن انتهي من تجارتي ، كان لجوجاً وكريهاً في الكثير من تصرفاته ، لكنه في الحقيقة صار أشد مريـديي تـودداً ، لم يـضايقني مـا يفعـل فأنـا بحاجـة لتبريـر بعـض سـلوكي أمـام رواد الـشارع ، هـم أثنـوا علـي بمساهمتي في جـلاء الغمـة طـوال فـصل الخريف وعدوني المنقذ دائماً من مشاكلهم ، ولم يبادر أحد بسؤالي عن تركي مهنة التمريض ، كنت جاهزة للرد لكن لم يسأل أحد ، وهكذا تقبلوا تضحية الممرضة التي تركت مهنتها لتساعد الناس في وقـت المحنـة ، ويـا لهـا مـن محنـة ، لم تكـن في الحـسبان وجـاءت في الوقت المناسب ، وحصلت فيها على خطيب.

يوم نقـل أخـي للأسـرة رغبـة شـريكه في الاسـم والمهنـة اصـطدم بمعارضة الأخ الأوسط ، لقد أصر الآخر إن لديه العريس المناسب.

- بائع خضروات في سوق الجملة.

عـدد محاسـنه وتوقـف كـثيراً عنـد فتوتـه ، كـان معجبـاً جـداً

بعضلاته المفتولة وكأنه يتغزل بقمر.

لم أكن حاضرة أثناء المجادلة ، فلم أسمع آراء الآخرين ، كانت تكفيني التلميحات من هذا الطرف أو ذاك ، وإن المعركة ستنشب ذات يوم ، لم أكن مستعدة لها فلا زال الوقت مبكراً لمثل هذه الخطوة.

زارني بائع الجملة ، بالتأكيد استدل علي بواسطة أخي الشرطي ، لم أكرهه ولم أقربه ، تجاذبنا أطراف الحديث ، عضلاته المفتولة ناتجة عن نمو مفرط في الغدد ، لم يغرني شكله ، ابداؤه للمرونة في طلباتي وهيامه في علة فقر الدم المزمن جعلا منه شخصاً ودوداً جداً ، لكنه بالتأكيد لا يصلح عريساً أبداً.

تصارع الأخوان أكملته بإهمالي للأمر وعدم إحراجي للأختين ، فهما تكبرانني وما زالتا عانستين ، فلم الاستعجال خاصة وأنا أهوى التريث ما دامت ((حاجة يعقوب)) لم تقض بعد.

أنا تعللت أمام الأخوين بعدم الخوض بسبب اعتلال صحة الوالد ، ومن العيب التكلم ما دامت علته تزداد وطأة.

لقد أخذت الغمامة بخناقه ولم يعد قادراً على التنفس ، سرح نفسه في بداية الأزمة إلى أقربائه في بني وليد ، هم أيضا لم يتحملوا وجوده الطويل ، خاصة وإنه بحاجة إلى رعاية خاصة ، اذ فقد بصره في ليلة حالكة السواد ، قلعت عيناه بطريقة غريبة ، وكأن ثمة من حفرها بعناية وأخرج الكرتين من مكانهما دون أن يتسبب بنزيف.

يومها أصبح نهاره فاقد البصر.

العائلة أولت الحدث إلى جن سرق الفصين ، أنا علقت في النهاية وتركت اللوم يقع عليه ، إذ نام ليلته في فسحة الدار فانفرد به غراب أسود والتقط العينين بسهولة ، ذلك إن الغربان لها مثل هذه العادة ، والناس تخشاها خاصة في الليالي المظلمة.

استسلم الأب لقدره ولم يسأل عمن سرق بصره ، لكنه مال للعزلة التامة ، ونادراً ما كنا نراه خلا صدفة ، تولت شؤونه زوجته ، كانت تنقل لنا أخباره ثم بعد فترة انقطعت عن النقل وأعتقد إنه أمرها بذلك.

الأخوات والإخوان يتوددون له بين الحين والآخر ، فكان يكلمهم من وراء باب مغلق ، إلا أنا فكم حاولت أن اجلب انتباهه ، فلم يكن يرد علي إطلاقا ، بل زاد بأن يبدأ بالمهمهة عندما يسمع صوتي في أرجاء البيت ، سألت الوالدة عن تلك الأصوات المبهمة فلم تعلق ، إذ لم تسمعها هي.

هذه المرة وبعد عودته من رحلته الميمونة إلى الأقرباء ، انعقد لسانه ، إذ أصبح ثقيلا ثم استقر في قاع الفم عضواً مهملاً. صحيح إنه خرج بعض شيء من عزلته وعاد يتواجد مع أفراد الأسرة في بعض أوقات النهار ، لكنه ليلاً يغلق غرفته بإحكام وكأن ثمة من يهاجمه وهو نائم.

عرضت عليه أكثر من مرة الذهاب إلى الأطباء لفحصه ، لكنه أبى ولم تنجح معه كل محاولات الأهل ، كأن الأمر محتم له وكأنه ينال جزاء جرم ما اقترفه بحياته.

الأختان تندبان الحظ العاثر بفقدان أهمية الأب ، وتعليقاتهما لا تخرج عن موضع الحظ العاثر ، فالأب كان لهما الساتر والحامي ووجوده بركة على أهل البيت. تدخلان بمشاحنات معي ، اذ تعيبان علي الصمت وعدم المشاركة في الندب والندم ، أنا سلمت بالموضوع واعتبرته قد توفي ، فوجوده من عدمه لم يعد مؤثراً في مسار حياتي.

أنا أعي جيداً التغير الكبير الذي حدث للعائلة ، انهمرت عليها النقود بشكل مفرط أثناء فترة الغمامة ، فقد راجت بضاعة أخي الكبير وبات يدر مداخير أكثر مني ، ولنيته الطيبة تكفل هو بمصروف البيت.

- أعوضك عن سنوات الضنك.

ضحكت لمبادرته وسألته:

- هل أنت فعلاً قادر أن تتكفل؟
- ما تجنيه أنتِ ادخريه لعرسك.

لكن ثمة نكسة قد أصابت لحمة العائلة ، إذ انفرد أخي الأصغر بقرار صعب بعدما قال جملته المشهورة:

- الطوفان آت ، لا محالة.

ترك البيت دون سابق إنذار ولم يعد إطلاقاً ، بحث عنه الإخوة كثيراً وعادوا بعناده:

- لن أعود حتى يقضي الله أمره.

فتشت عنه أنا ، اصطدته عند مدخل الجامعة ، أنا أكن له وداً خاصاً ويحظى لدي بمكانة دون بقية الإخوة ، ما يشدني إليه رغبته العارمة في الحياة ، هو مفعم بالحيوية وسريع البديهية خاصة في المواقف الحرجة ، ودائماً يختمها بنكهته المعهودة.

قدمت له مصروفاً يكفيه لسنة ، لكنه رفض ، صار عنيداً وصلباً ، لقد تغير كثيراً حتى كلامه الحلو تلاشى ، حاولت أن أشحت منه فلم يتفوه ، وكأن عبارته السابقة لم تعد تلائمني.

- ماذا جرى يا عليوة؟
- من فضلك أنا جنيد.

لهجته حادة وباترة ، لم أجد أي حديث آخر.

- طيب ، دعنا نبقى أخوين.
- وهل أنت اخت حقاً؟.

على الإطلاق لم أتوقع أن يوجه هذا السهم الحاد ، فهو الأخ الوحيد الذي أشعر بقربه مني..

- لم أتوقف يوماً عن..
- أرجوكِ ، كفى..

المفردات التي يستعملها في حديثه جديدة علي ، ارتضيت الظن إنها جاءته من دراسة الفلسفة ، بذلت آخر ما في جعبتي:

- طيب ، دعنا نبدأ من جديد ، أنت الأخ الحبيب.
- آه..

لم أميز إن كان يستهزئ أو يتأوه من ألم داخلي.

- لن أكف عنك حتى نعود أخوين.
- كان الشهد بين يديك...

قالها ببساطة ، أنا المعبأة بأثقال جمة انفجرت باكية ، لأي من ارهاصاتي بكيت؟ لا أدري لكنني بكيت بحرقة ولوقت طويل ، ظل يتفرج حتى كففت من تلقاء نفسي ، قبل أن أودعه حاولت أن أسأله بطيبة:

- أي شهد تقصد؟

طبطب على كتفي وانصرف ، بقيت مشدوهة وأنا أرى أخي يتسرب من بين يدي ، مقهورة وحزينة عدت.

انقشعت الغمامة قبل حلول برد الشتاء ، وجدت نفسي خالية الوفاض مما يحيطني ، عالمي الواسع تقلص بشكل عجيب وبات سريراً في حجرة مظلمة وعملاً في معطرات الجو لا يثير اهتمامي ، أنا أعرف نفسي جيداً ، فموسم الشتاء يحتاج مني استعداداً لليال باردة وأطرافاً تصنع مثلثاً ، جذع مكور مثل قنفذ يخاف البرد.

إنه الشتاء الأول ومنذ أمد بعيد أجد نفسي متخوفة من الوحدة ، كنت أعطر ليالي بأحلام وأتدفأ بها ، لكنها الآن صارت كوابيس ، أهرب منها ولم تنفك تطاردني حتى في يقظتي ، في كل ليلة نفس الحلم يتكرر ، تضاف إليه بعض الرتوش أو تنقص ، لكنه كما هو ، ولطالما سألت نفسي عن تكراره المزعج فلم أجد تفسيراً ، استسلمت للحلم وأتمنى أن لا اضطجع على السرير حتى لا يمسك بخناقي.

ضاعت الأحلام الحلوة وبقيت الكوابيس ، وكأن الصور الجميلة مسحت من الذهن ولم أمر بتجربة رائقة في حياتي.

أجد نفسي كل ليلة وحيدة في الصحراء ، تائهة أبحث عن طريق يهديني إلى المدينة ، ودائماً تصادفني زرائب مهدمة ، حالما أمسك السياج يطالعني خروف ، ثم يأتي كبش كبير ، ينطحه بعنف ، تقدم خنازير وسخة تلعق الدم المراق.

أفز مذعورة ويفارقني النوم ، إن استيقظت الأختان فهذا يعني إني كنت أصرخ أثناء الحلم ، في البداية اهتمتا لما يعتريني ثم اعتادتا الصراخ وتحولتا إلى التأفف ، حتى عادتا لا تنظران في وجهي.

تأزمت فتحولت إلى نزقة ، تأخذني العصبية فأجد نفسي ثائرة ، أستشيط غضباً ، ولم أعد تلك الفتاة صاحبة الإبتسامة الخلابة.

حاولت مراراً أن أنظم حياتي من جديد بيد أني لم أفلح ، لم أرغب بأن أبدأ من جديد ، فهذا هو مقتلي بلا شك.

اكتنفني وقت الفراغ منذ إن خفت مبيعات الأعشاب.

كنت أود العودة إلى مقر عملي القديم ، لقد طردت نفسي خوف افتضاح الأمر ، إذ تعرضت إلى العض المبرح ، كانت طريقة اصطيادي ذكية ، الممرضة كانت حاذقة وأعدت أمورها جيداً.

استقبلتني من أدعت أختاً لغصن الريحان بالأحضان ، هللت ورحبت وأبدت اشتياقها بكل كلمات الحب ، استغربت هذا اللقاء الحار خاصة وإني لم أغب طويلاً ، أسبوع قضيته راقدة في المستشفى لعلاج الدوار وفقر الدم.

وجدت الممرضة تشغل مكاني ريثما أعود ، لم تك متفاجئة من دخولي عند الثامنة صباحاً لكنها أظهرت شوقها ، تجاذبنا ثرثرة حتى انصرف المدير كعادته عند العاشرة ، جالت في العيادة وسرحت عائشة بطلب صعب المنال ثم قدمت نحوي ، كنت في الغرفة الأخيرة أضع ساقاً فوق ساق ، مسترخية في جلستي ، أضاءت ابتسامة وجهها ثم اندفعت بقوة ، جردتني من التنورة وانهالت عضاً في الفخذين ، لم تترك مكاناً إلا وحفرت أسنانها فيه ، أنا لم ألحق ولم أجد فرصة في الدفاع ، لقد كانت قطة شرسة ، عندما شبعت من عض الفخذين بركت فوق صدري ، لو تركتها لقلعت ثديي من موضعهما ، إنها بالتأكيد في تلك اللحظات لم تكن من جنس البشر.

- هذا جزاء فعلتك الشنيعة.

ثم أضافت مهددة:

- أخي أشرف من تلطخ سمعته داعرة مثلك.

نهضت من صدري ، ساعدتني في لملمة نفسي ، اقتربت كثيراً فخفت أن تبدأ من جديد ، بيد إنها طبعت قبلة وأردفت:

- إياك ثانية ، سأنشر خبرك في الحي كله.

ذكاؤها إنها استعملت طريقتي في أداء الدور ، هادئة وصديقة أمام الآخرين ، وعندما تنفرد فأنها نمرة أكالة.

لم أقترب منها بعد ذلك أبداً فقد أخذت تهديدها على محمل الجد ، أنا نفسي بارعة في هذا الفن وعليّ أن أحترم وأهاب ذكاءها.

كلما أخذني الحنين إلى العيادة أتذكر الواقعة وأخشى المواجهة

معها ، بقيت اتصالاتي مع الأركان الثلاثة عبر الهاتف وعند الضرورة أزورهم في البيوت.

الأخبار تصلني باستمرار ما دامت عاملة النظافة تتواصل معي ، هي الوحيدة التي ظلت مخلصة للصداقة القديمة ، كل شاردة وواردة أعرفها ، حتى بعض القيل الذي يتداول بخصوصي تنقله عائشة بحيادية وخوف الاصطدام معي.

لم تردني أبداً أي إشارة عن معركة العض ، وهذا يعني إن الأخت بالتمني مصرة على ممارسة ذكائها معي.

لم أجد سبيلاً إلى التصالح معها ، فقد مرت عدة مناسبات باركت لها الأعياد وتمنيت لها السعادة وكانت تبادلني الرسائل عبر الهاتف مع رنة تذكرني إنها بالمرصاد.

ماذا لو ذهبت لمقابلتها عند أهلها؟ خفت الفضيحة وتراجعت ، لذا قررت الذهاب إلى العيادة وقت الذروة فلا يتاح لها الوقت لعضي ثانية ، لاقتني بابتسامة ماكرة ثم أخذتني لحضنها وحالما ألتقى الجسدان همست:

- أنتِ لا تستحقين لمسة أخي غصن الريحان.

كانت صريحة وإن عقالها سيفلت إن قمت بأي حركة ، همسها بين لي أن الفضيحة قادمة لا محالة ، مما اضطرني إلى الهرب بسرعة ، نسيت أن ألقي التحية على من اصطدم بي عند البوابة ، أسرع يركض خلفي ثم أمسك بي في عرض الشارع.

- ما بك هاربة؟

كان خيزران نظام الدولة يهدئ من روعي ويعبرني الشارع ، رحب كثيراً وحن أكثر إلى دفء الذراع وأبدى الاستعداد إلى المساعدة ، التقطت أنفاسي وقلت له:

- نفس الطلب السابق.
- بذلت أقصى جهد ، لا أثر له.
- في منصبك وتعجز عن إيجاد شخص غريب!!.
- لقد ساعدني أشخاص كثر وذو مناصب لكن بدون فائدة.

أصبح الحديث معه بدون معنى ، فرميت سهمي الأخير:

- إذن إبق عالقاً في البرودة ، أوجد غصن الريحان لي.

شعر إنه يفقد أعز لحظة في يومه فأبدى مرونة.

- سأحاول ، ولا بد ذات يوم.

ودعته بابتسامة فاترة وجعلت رجائي فيه محدوداً ، فلقد عجز منذ سنة عن إيجاد مكان تواجد الطبيب غصن الريحان ، هو في الحقيقة ليس الوحيد العاجز ، هذه المهمة خاب فيها الكثير من مريديي ، كنت أتهمهم بعدم الجدية لكني بتقادم الزمن صدقت أن فرصة اقتناصه ثانية أصبحت محدودة.

منذ خروجه من مخفر الشرطة في اليوم الثاني للحادث اختفت أخباره ، أنا علمت بعد أسبوع ، إذ كنت راقدة في المستشفى ، بأمر الخروج.

هنالك تأويلات وأحاديث شتى عن خروجه بسرعة ، لكن المؤكد إن أحداً ما ساعده ، فقد قدم إلى المحقق نسخة من كتيب العائلة ومدون فيه ثلاث أخوات بنفس الاسم ، مما حدا بالمحقق لآن يفرج عنه لسبب إن المدعية ليست شخصاً اعتبارياً محدداً وإن التهمة كانت كيدية.

أنا لم أسأل أو أستفسر عن الجملة التي قيلت لكني انشغلت بالصدفة التي أوقعتني قعيدة السرير وبمن ساعده بنسخة الكتيب ، ولما لم أجد من يشبع فضولي بذلت وما زلت كل جهد لإيجاده.

خلفت لي تلك الزيارة للعيادة صداعاً وقلقاً وأحسست إن عالمي يتهاوى ، ذلك الذي شيدته بالشطارة والتعب آيل إلى السقوط ، كل المريدين ورواد الشارع لم يفلحوا في إيجاد شخص ، فلم كنت أستعرض عليهم غنجتي؟ حتى الغزل انقطع وكأن ثمة انطفاء حدث لهذه المنطقة.

تحولت معزتي في الشارع إلى إحترام ، وكأني ربة بيت تهالكها العمر ، الفتاة المدللة اختفت من الوجود.

عليّ إعادة صياغة حياتي من جديد ، لا شيء يمنعني ، فما زلت كما أنا فتية ، نشطة تتفجر طاقة ورغبة في الحياة ، استفدت من الذكرى السنوية لميلادي وقررت الذهاب إلى المقهى كالعادة.

وجدتها تعج بالناس وتمنعت الدخول لولا إلحاح العامل ، بذل ترحيبه بأن وفر لي طاولة وساتراً يقيني عيون الرواد ، لقد حفظ مجيئي السنوي ، تبادر لي أن أسأله لكني خجلت ، في دماغي

تزدحم الأفكار ، كل ينط ذات حين ، لم أقم بعملية الفرز بيد إني ذات هدف محدد.

- لا بد أن أجده ولو باي وسيلة.

تراءى لي أن كل معارفي القدامى لم يعدوا ذوي نفع ولا بد من البحث عن وجه جديد ، يضخ الدم لحياتي اليابسة.

في المقهى استعرضت من أعرف ومن لم أعرف وعزمت أن أكلفهم ، وأول الوجوه سيحضر عما قريب ، من يودني فليعرض خدمته أولاً.

- صباح الخير.

وجلس ، يبدو الإشراق على بائع الخضراوات ، تقصدت أن أنفرد به بعيداً عن منطقة سكني.

- لك الحق أن تدعي إنك خطيبي ، أنا موافقة ، لكن لا تقرب إلى جهة ((الهضبة)) سأحتاج وقتاً كيما أرتب موافقة أهلي على هذه الخطوبة ، وعليك أن تبتعد بالتمام عن أخي الوسط ، بمعنى آخر أنت خطيبي لكن ليس بشكل رسمي ، هل اتفقنا؟

طار من الفرح ونزل يهلهل ، اقتنصت فرحته وكلفته بعملية البحث.

- كل الناس تمر على سوق الخضار ، سأجده. اطمئني ، كنت متأكدة من موافقته بعدما مددت ابتسامة بعرض رغبته وتلك طريقتي في تقصيرها ومدها حسب الحاجة ، وربي لا يحرمني من

هذه الإبتسامة الخلابة ، قانون الجاذبية الذي في حوزتي.

عرجت بعد اللقاء إلى محل الألبان ، لتصفية بعض الحسابات العالقة ومن ثم اختتم معه موضوع الخطوبة أيضاً ، وجدت أخي الأكبر ، قدم لي عصيراً محلى ثم طلب ((لطفي)) بالهاتف.

- سيأتي الآن.

تركني وحيدة وذهب لمتابعة شؤون أعماله ، تسليت بالنظر إلى المارة ، لم يدخل أحد للشراء ، قدم ((لطفي)) راكضاً.

- صباح الخير ، زيارة مفاجئة.

لم يتقبل فكرتي التي عرضتها ، أصر أن يتقدم إلى أهلي ، أطلت شرح ظروف البيت.

- ستكون خطيبي أمام سكان المنطقة ، ماذا تريد أكثر؟

مد يده إلى ساقي ، تركته يتحسسها ، هامت عيناه وزاغت ، كان جسدي يقشعر وانتابته برودة كأنها صقيع ، ولما فرغ عرضت عليه طلبي ، وافق مباشرة وتم الاتفاق ، لم أكن أفكر أن أعرض عليه شيئاً من جسدي ، لكنني في الحقيقة تركته يمرر يده عدة مرات لعل هذا الجسد يفور من جديد ، ولم يحدث.

- هل انطفأ أم يريد من أغلقه له فقط؟

لقد سلمت بهذه البديهية ، رغم كل تجاربي الفاشلة ، إن الجسد لذلك الرجل ولن يتحرك.

لم أشعر بأي إحباط ، بل خرجت منشرحة الصدر وسعيدة.

- إذن أنا عاشقة... وخائبة.

زادتني سعادتي إصراراً في البحث عنه ، عرجت على أخي في دار الإذاعة ، فرح بقدومي ، فهذه أول مرة أزوره في مقر عمله. بعد الترحيب راوغته مدعية عرض مشكلة لإحدى صديقاتي..

تفهم الفكرة جيداً وسوف يستعين بشبكة أصحابه في البحث ، وقبل خروجي استوقفني بسؤال: -

- هل هذا الشخص سارق. قاتل..؟

- لا. لا.. ابداً ، مشكلة عائلية ليس إلا.

ذهبت وقلبي يرتعد من سؤاله ، يكفيني ما حدث لغصن الريحان ولا أرغب في إلصاق تهمة ثانية به.

- هل يفكر فيّ؟

لو أجد أيما إشارة عن هذا السؤال لاسترحت ، لدفنت الغليان الذي يشتعل في داخلي ، لتقدمت منه نادمة ، لكن ماذا لو نسيني؟

أهرب من هذا السؤال وأطرحه من خاطري ، فحتماً سأكون في التهلكة ، هو لا يرضى أن تصل العلاقة بيننا لهذه النتيجة المرعبة.

- لماذا إذن ، لا يظهر؟

ثم أسال: -

- لماذا لا يرسل إشارة؟

ثم أسأل: -

- أين اختفى؟ هل غادر البلاد؟

عندئذ يوقعني فقر الدم طريحة الفراش واصفرار الوجه.

ثم أرجوه:

- تعال ، أكحل عيناي برؤيتك.

خاوية هي الحياة ، تغيرت مساراتها وتهاوى عالمي ، كأني لم أبنِ شيئاً منذ خروجي طليقة من قيد البيت.

الأيام تمر بسأم ، أحصيها كارهة واضعة يدي على خدي بانتظار المجهول ، الفتاة اختفت والأنثى في الداخل خمدت ، لم يعد ما يثير اهتمامي ، مهملة أتحرك في محيطي ابتداء من البيت إلى الحي ، الدورة ذاتها كل يوم ، دون جدوى أسعى ، وما أفتش عنه ضاع في كومة قش.

- هل أنتظر الفرج؟

أنا أوهم نفسي بأمل كاذب.

- هل أنتظر المصائب؟

في أيما لحظة يراودني هذا الهاجس ، حتى أصبح يأخذ بخناقي ، كوابيس الليل ، ونوازع النهار جعلتا من حياتي لا تطاق.

لم أستغرب عندما حملوا أخي الكبير ذات صباح ، كان بين أصحابه جسداً أزرق ، سهر الليل يتسامر مع شلته وأصبح مشلولاً ، يقولون إنه تعاطى جرعة زائدة فأدت إلى الإختناق أولاً ثم شل.

تعالى النواح ، أهل البيت يصرخون وأنا أنظر بعينين فارغتين ، لقد علق النحس برقاب هذه العائلة وأمست يتناقص عددها ، أصبح البيت خاوياً علي ، الأخ الأوسط يعود أطراف الليل ، والبقية قد رحلوا.

في نهـار خريفـي مغـبر حزمـت أخـتي الكـبرى حقيبتـها ، واستأجرت سيارة تقلها مع المشلول إلى (بني وليد) ، قررت أن ترعى أخاها ، هنالك استقرت ولن تعود حتى ((يقرر الله أمراً)) ، لحقوا بها عند مفترق الجامع ، فسافروا جميعاً.

لم يكن لبقاء الأخ الأوسط من معنى ، ما دام قد عجز عن إيجاد مرادي ، ولولا بعض الوعود لما طقت وجوده معي ، كل يوم ينقل لي خبراً أكيداً حتى قرار إعادة تنظيم الأجانب الذي أصدره الوزير لم يأت بفائدة.

أنا التي لم تعرف التعبير بالكلمات وترى إن لغة الجسد هي الوحيدة المحكية ، تبين لي أخيراً إن اللعنة حلت ولا بد من تقديم القربان.

- لن يثنيني شيء أبداً ، ستكون أنيابي هي المفترسة.

لا مندوحة إن المصائب قادمة ، لقد تنبأ بذلك الصبي ، الشيخ عليوة ، الأخ الحاضر الغائب.

- الطوفان آت.

كنت أجاري دعابته بابتسامة ، وأرى إن الصبي متخوف من رؤيا تأتيه ليلاً ، لكنني أدرك إن السماء فعلاً ملبدة بالغيوم ، تتراكض حيناً وترقد فوق الصدور أحيانا كثيرة ، أتمنى أن أراه ، يحكي لي عما يدور حولي ، يستشيط غضباً ويردف:

- أحقا لا ترين ما يحدث في (الشأن العام)؟!

لن يتسرب غضبه بمداعبة شعره ، كما أفعل معه دائماً ، بل يظل

يعدد ويعدد ويختم بيأس:

- أتفهمين؟

- لا..

صدقاً أقول وأحياناً عناداً له ، يغادرني ضارباً كفاً بكف: -

- لا حياة ، يا من تنادي...

طلت بواكير المصائب في فجر يوم محمر ، الوحل يغرق الأحياء ، لقد فاضت مياه المجاري وانكسر إنبوب الضخ في المحطة الجنوبية ، لم يجد مجالاً إلا بالطوفان في الطرقات ، بدا الفيضان في شارع الشوك ثم امتد غرباً ناحية حي الأكواخ ، وريثما ارتفع منسوبه تسلق الهضبة.

كان يزحف في بطء عند الظهيرة في حوضها السفلي ، ولما وصل الشارع العام شعر الناس بالرعب ، أنا تسلقت سريري وجلست القرفصاء ، أرى الوحل قد اقترب من غرفتي فلم أجد غير السرير ملاذاً ، تراءى لي تلك الليلة إن أخطبوطاً بألف ذراع يطوف في الأحياء ، الناس تهرب وأعمدة الإنارة المطفئة تتكسر ، أغلقت المحلات وشلت الحياة.

صباح اليوم التالي ما زلت دون الغرق بقليل ، لقد ارتفع المنسوب عند الفجر فانتابني الفزع ، علقت بعض الحبال في السقف وجعلت منها أرجوحة فيما لو واصل المد ارتفاعه.

في الصباح تلقيت مكالمة من أخي في الإذاعة ، كان خفيراً تلك الليلة ، اطمأن بتنهيدة صاخبة عندما سمع صوتي.

- لا تخافي ، لن يطول الموضوع.

- هل حقاً إدارة الصرف الصحي قادرة على سحب هذه السيول؟

- لا تخافي ، إن رغبت تعالي إلى الإذاعة.

ثم أردف.

- أنا مقيم هنا ، حتى تنجلي الأزمة.

فرحت ، وسط الهم ، إن ثمة من يهتم لأمري ، وساقني حس المرأة لأن أطلب عرافي الحبيب ، جاء صوته أليفا ودوداً:

- عليوة. أنا أختك.

ما زال يضحك.

- جنيد. ألحقني.

توقف عن الضحك ، رنت الرزانة في جرس صوته:

- تهيئي ، سأمر عليك عصراً.

تهللت فرحاً ، زغردت المعلقة فوق إرجوحة.

- سيأتي ، ينقذني.

لم يخب رجائي به أبداً منذ كان وديعاً ، عندما كبر اعتبرته أخي المدلل ، لما خط شاربه فارقني ، كنت في حسرة لما اعتراه لكني في قرارة نفسي أشاطره رغباته ، لقد أفلت نجمه من هذا الفلك ونأى بنفسه بعيداً.

صنع طوافته بنفسه وجاء المنقذ لباب الغرفة ، تعلقت برقبته مثل

طفلة صغيرة ، حملني وأخرجني.

في حي آخر أودعني غرفة أنيقة ذات أثاث راق ، يدلل إن ساكنها السابق أعزب ، انتظرت مجيئه فنمت على طرف كنبة عالية التجنيد ، لقد سرقني النوم بسرعة ، وبلهفة المشتاق رحت بسبات عميق ، أيقظني عليوة في اليوم التالي ، حمل معه حقيبة ملابس نسائية ومائدة عامرة بأصناف الطعام.

عندما شبع نهض وتركني أربعة أيام قضيتها مرتاحة في غرفة جديدة.

في اليوم الخامس شعرت بالقلق ، إنه الذكرى السنوية ليوم ميلادي ومروري المعتاد على المقهى ، عند حلول الظلام قدم بوجه مشرق ناولني هدية صامتاً ، انصرف إلى إعداد مائدة عليها زينة وشموع وكعكة مثل سمكة ، نضد أطباق الطعام ، واحد أمامه وآخر دفعه لي ، وثالث لكرسي فارغ ، لم ينطق وأنا أيضاً لم أتفوه ، إنه يعيد عشاءً سابقاً ، احتفل معي وقضى نصف الليل ، ولما ودعني رفض أن أشكره أو أقبله ، كان شديد الحزم فكففت مثل تلميذة خائفة. إنه أخي حقاً لكنه رجل آخر.

ستة أيام وحيدة في الغرفة ، أعيد ألعابي لما كنت صغيرة ، كأنه أودعني مشفى للنقاهة ، وحسناً فعل.

عصراً طلب مني أن أخرج معه لفترة ، كنت متلهفة وأنيقة ، توقف خلف الفندق الكبير ، بمودة أشر وقال:

- انتظريني هنا ، سآتي بعد حين.

ذهب وتوارى كلمح البصر ، ابتلعه أحد الأزقة الضيقة ، كان الشارع يعج بالمارة والسيارات.

بمنتهى البساطة نزلت دموعي ، تذكرت ما جرى لي أول مرة منذ أربع عشرة سنة ، من هنا نزعت قيدي وهنا لففت حبل المشنقة على رقبتي ، كنت غبية وعنيدة وما زلت.

توقفت أمامي سيارة كما أول مرة ، سائقها فتح الباب القريب وسمعت صوتاً ، لم يظهر رأس الرجل ، لكن الصوت لمارد يأمر ويطاع.

- إصعدي.

انحنيت ، رأيت الوجه وصعدت ، مصعوقة ومذهولة وخرساء ومبعثرة وسقطت على الكرسي مائلة ، ورأسي بين يدي ، يداي تضغطان عليه لإيقاف الطنين ، بعدها شعرت بالخدر يسري في جسدي كله ، لقد أطبقت أجفاني وتملكتني رغبة عارمة في النوم ، لم أنطق ولم أتكلم لقد جاء سلطان النعاس فأخذني.

شريط الذكريات يدور بسرعة على شاشة مطفأة ، أسمع ارتطام الأمواج ، أسمع ضجيج العربات على الطريق ، أشم روائح فواكه طازجة.

الأجفان مهدلة فلم أر شيئاً ، رقاص الزمن يطن في عمق الظلمة ، ساد الهدوء قليلاً ، تلاشت الأصوات وبقي فقط واحد ، أسمعه بوضوح:

- إلى يمين المدينة الآثرية ، بقايا من عصر الرومان ، ما زال

المسرح قائماً ، أطلال لأعمدة رخامية كثيرة وحجارة مبعثرة.

يسترد الصوت بعضاً من ترنيمة وديعة:

- إلى اليسار ، كان هنا مصيف (آن الليل) هجر فأهمل وتحول إلى خرائب ، بعده بقليل ثمة شلل سواح.

هذه المرة توقف الصوت ، ثم عاد ثانية:

- أمامك البحر ، الشاطئ من حصى ناعم ، المياه رائعة ، يمتد الجرف على وسع النظر ، يشكل نصف قوس ، نحن في عمق خاصرته.

صمت ، انقطع عن الحديث ، صوت باب السيارة يفتح ، يترجل منها ، لم يأمرني بالنزول ، نسمة منعشة أيقظت حواسي.

كان المنظر خلاباً ، السيارة تقف بمحاذاة الشاطئ ، يمتد البحر عميقاً ، على مدى النظر يلتقي في أفق بعيد مع السماء. انشرح صدري للأمواج ، إنها لا ترتطم بل تعانق الشاطئ.

أخرج حاجياته من صندوق السيارة وانهمك في العمل ، نصب خيمة ثم قطع بعض سعف النخيل ، فرشه على الحصى ، ضوء السيارة ينير قليلاً من عتمة السماء.

رسم بحافة كعبه طريقاً من الخيمة إلى صفحة المياه ، وضع على الجانبين قناديل وشموعاً ودفوفاً مستديرة ، عندما لامس المياه زرع جريد النخل ثم علق عليها القناديل ، بات الطريق يصل إلى عمق الشاطئ.

نشر بعض الأكياس داخل الخيمة وسار نحوي:

- أرتديه.

ثوب فضفاض ناصع البياض ، أكمام واسعة ، يجلب البهجة ، خلعت ما علي واسدلته فوقي ، شعرت بالنسائم تلاطف جسدي حالما خرجت من السيارة ، الثوب يرفرف مع الهواء والأكمام تتطاير مع حركة الذراعين.

قادني إلى أول الدرب ، أضاء الشموع فأبصرت الطريق ، انبهرت وخلب لبي المنظر ، أنا عند أوله متسمرة ونهايته تمتند مع أفق انعكاس القناديل فوق المياه ، وبين ضفتيه وعند النهاية تتكاثف نجوم السماء ، فتبدو مثل ثرية معلقة.

وقف بجواري وبدأ يرشدني لما أفعل ، أسندت قامتي على طوله ، نصفي الأيسر يلتصق به والنصف الآخر يضربه الهواء ، مد ذراعه فطوق خصري ، ذراعي لفها حول عنقه ، الذراع الأخرى بسطت كجناح ، هو فعلها قبلي فقلدت حركته ، صرت شديدة الإلتصاق مع جذعه ، يبدو إننا نتهيأ للطيران.

تعالى صوت منشد ، من أعماق الظلمة انبثق الغناء:

- ((الرضا والنور.. والصبايا الحور.. أوقدوا الشموع.. دقوا الدفوف))[٥].

نتحرك ببطء فوق الطريق ، الشموع تضيء تقدمنا ، الخطى ترتفع ، بالكاد نلامس الأرض ، الغناء يتصاعد:

---

(٥) من قصيدة (الرضا والنور) غنتها أم كلثوم.

- وجده التليد في السماء يدور.. ميلاده المجيد للسماء يعود..

تجاوزنا الجرف ، فوق المياه نحلق ، الدرب ينشق أمامنا صاعداً ، ذراعه تشد وسطي بقوة ، أتشبث فيرفعني ، كريشة يدفع الهواء الثوب ، يخلق منه جناحين ، عناقيد النجوم تتلألأ ، تشق دربها متجهة صوب جوفي ، لقد حملتنا النسائم في درب الرضا.

- طوبى للطائر المحلق في النور..

حانت مني إلتفاتة ، شق علي البعد فارتخت يدي ، في عمق المياه اصطدم ، صار نصفي تحت الماء ونصف يطفو ، استدار نحوي ، إلى المهبط يعود.

- اغتسلي.

خفت البرودة ، ارتجفت أوصالي وشعرت بالذل إذ خذلته ، كان هبوطه كطائر اللقلق ، ضم جناحيه ينتظر خروجي ، انقطع الشدو وانكسر الطقس.

- ليتني تعاليت.

نادمة ومرتجفة ، أخذني إلى الخيمة ، مر دهر دون أن يعلق.

- ليته يؤنبني.

قام يطوي الدفوف والقناديل ، يريد الرحيل ، استجمعت قوتي ، صوتي مبحوح ومرتجى.

- دعنا نمضي الليلة في العراء.

- أنتِ لا تودين أن...

أكثر الكلام وأعاد رسم المشهد ، ابتدأ بحكاية بائع الخمر وطينة آدم وانتهى عند القصاب والكلب.

أخذت رأسه إلى حجري ، مسدت الشعر فغفا ، لقد نام من القهر ، كان الحزن يرتسم في جبهته المعقودة.

مرت ساعات حتى انتظم تنفسه ، توسدت ذراعه ورقدت بجواره.

- دعني أقص عليك حكايتي.

وإن كان في عمق النوم فلا بد أن يسمعني ، لم يعد ثمة متسع لزمان آخر.

- يا مالك الوجد.

كأني أتهيأ لقيء الغل كله.

- لم أعشق أحداً غيرك ، وهذا الجسد خلق لك بشوقه ونيرانه ، لقد وشمت لك قبل أن أولد ، أول نطق كان اسمك ، لوثه حملناها في دمنا.

أقعدوني الدار للتجهز العروس بانتظارك ، ستة أعوام أصارع جسدي حتى تغلب علي ، رسمت له مئات الشبان فاكتفى بطلبك ، زرعت فيه الجمر فاستوى يريدك.

كرهت الليالي وأنا أخوض المعارك مع طيفك ، أبعده عني ويعود ، وأصبح حاملة الكدمات ، كنت تغلبني ، تأخذني بالقوة ، ستة أعوام وأنت تغتصبني كل ليلة.

قررت الهرب منك لكنك جئت في يوم تمردي ، رجل شهم ينقذني من الدعارة ، سبع ساعات أهيم في حبك حتى علقت في

دمـي ، مـن المقهـى إلى سـوق الـترك إلى الهـدايا ، لم أكـن أعـي محيطي ، بل أسبح في بحر رجولتك ، مارد وفتـى أشـتهيه ، رجـل ومنقذ أعشقه حتى تسربت إلى النخاع ، سكنت هنالك.

في لحظة الوداع تقول اسمك: (أنا. مالك. الوجد.) ، أي قهـر حملتـه تلـك الكلمـات ، قـذفتني ثانيـة في لجـة الـصراع ، العاشـق وصانع ذلي ، اللوثة والرجولة. قررت أن لا أتـصدع ، كـان الغـل هـو الغالب.

طاردتك ثلاثة أعوام بين المصحات ، أبحث عنك وأخفـي وجـه عاملة النظافة الخجلة.

زاد غلـي إشـتعالاً ، حـين طردتـك ألتقيـتني ، وحـين وجـدتك ضعت في المدينة ، لم يعد مندوحة من اصطيادك. فدخلت مـضمار مهنتك وضاع من عمري أربعة أعوام في معهد سخيف.

كنـت تغـيظني بطـرودك ، مائـة وعشرون هديـة تبكـيني وألبـسها كرهاً فيك لأغوي الفتيان ، كأنك تكلمني عـن بعـد ، أظـل المنتظـرة قدومك طوال العمر.

تفتـق ذهـني بـأن أغويـك ، سمـه مـا تـشاء ، درب الكلـب علـى القصاب ، لكن الإغواء هو مـن يـدخل الأسـد إلى العـرين ، فهيـأت العيادة وابتكرت صناعة المرض وجلبت الطوابير ، كل هذا بمكر فتاة وضعت نصب عينها هدفاً ، أن تقع في شباكي.

تـركتني أربعـة أشـهر أتلـوى حـسرة علـى هروبـك مـن "قـن الدجاج" ، ثم كان من لا بد منه ، حبائلي الدبقة جذبتك.

لكن صدقني أيها الحبيب ، كنت لك في ليلة الصحراء عاشقة ، وليت عمري كله ليال في قفراء.

رجعت تلك الليلة أحمل هوسي القديم ، الحب الذي يمشي في العروق أم قهر السنين ، ليتك حسمت صراعي..

أسترد أنفاسي ، كنت ألهث من عبارات تخرج ملتاعة من جوفي ، وأنا أتشظى أسىً وألماً:

- قلت لك اغتصبني ، لكنت غلبتني ووضعت خاتمة لألمي..

أشتعل حقداً:

- لماذا لم تفعلها؟ ما الذي يمنعك؟ ، استسلمت لطيفك كل السنوات وعندما حضرت تريدني أن أعيد تكويني بشكل مغاير ، ألست ظالماً؟ ماذا أفعل بالعرفان والتكايا ، لا تطهرني الأناشيد ، أنا من رمل عجن على عجل فاستوى هشاً تملأه الفقاعات.

آه منك.. أه من الوجع ، يا حبيبي ونور عيني ، عذراً لم يعد لي بد ، ستموت الليلة.

نهضت من جواره ، أحضرت حبالاً وفتحت حقيبة العدة ، ممرضة مزيفة تباشر عملاً شائكاً ، غطته بالثوب الأبيض الفضفاض وعادت أدراجها صوب البيت.

كانت هنالك عجوز تقود ضريراً إلى الغرفة ، وفتاة بيضاء البشرة تجلس في فسحة الدار وشخص يكبرني بعام يشاهد التلفاز ، لم أعرفهم فذهبت مباشرة إلى السرير لأرقد.

عند مغيب الشمس وجدت عائلتي تتشاجر على نبأ يبثه المذيع

كل حين ، انفجار مأذنتي مرقد سامراء[٦].

- لقد قتلته.

كنت أسترعي انتباههم:

- فجر هذا اليوم قتلت مالك الوجد.

بالتأكيد يحتاجون برهة ليفقهوا ، فعلاً مضى بعض الوقت قبل أن يهجموا ، الأم جثت فوق صدري ، الأخت إنهالت عضاً في فخذي ، الأخ أحضر مقصاً وحلق شعري ، الأب الأعمى عاد بعد قليل يحمل إبرة معقود بها خيط مفتول ، ناوله إلى زوجته وأومأ:

- خيطي فرجها.

كنت أضحك للعض والحلاقة لكني جعرت صارخة بعدما رأيت أمر والدي.

---

(٦) حدث الانفجار في ٤ يناير ٢٠٠٧.

# ٦ـ المسجى

تعاون مسعفان على نقل الجثة إلى سيارة إسعاف ، الأول تناول الملف والثاني أصبح سائقاً ، مدير المستشفى أوصاهما بكل التعليمات المرافقة للنقل ، ثم لوح لهما مودعاً ، تحركت الإسعاف من المستشفى التعليمي متجهة إلى العاصمة ، شغلا صفارة السيارة عندما اجتازت الشارع الفرعي مستديرة إلى الشرق ، اذ عليها أن تمر بثلاث مدن صغيرة قبل أن تستلم الطريق الرئيسي ، بعض من رجال المرور يفسحون الدرب كيما تواصل سيرها ، عند إحدى الإشارات أوقفهما شرطي ليلقي التحية ، رحب السائق به بينما الثاني ألقى شتيمة رخيصة بصوت هامس ، السباب لم يكن بسبب التوقف إنما قطع عليه قراءة أوراق الملف ، اذ شدته غرابة الحادث الذي تعرض له الشخص.

كانت الصفحة الأولى عبارة عن توجيه موقع من مدير المستشفى وموجه إلى المستشفى المركزي مع رجاء خاص وشخصي بأن يتم الإعتناء بالحالة كون الشخص المنقول طبيباً في مهنته.

الورقة الثانية مكتوبة باللغة الإنكليزية وعليها توقيع ثلاثة أطباء المسعف يعرفهم شخصياً ويكن لهم الإحترام ، لذلك أعتبر حالة المنقول مهمة ، فنادراً ما التقى هؤلاء الثلاثة إلا إذا كانت الحالة مهمة جداً ، في مدينتهم الساحلية يتحايل الناس بألف واسطة للوصول إلى أي من هؤلاء الأطباء الثلاثة.

- كيف اجتمعوا ومتى؟

رد السائق وكأنه يسوق خبراً مهماً.

- منذ أمس والمستشفى في حالة هيجان ، أعتقد أن الشخص الذي ننقله مهم جداً.

- إذاً كان مهماً فلم لا ينقل بالإسعاف الطائر؟

رجع يقلب بقية أوراق الملف ، فوجد صفحة المعلومات العامة عن المريض فتأكد الآن لم المريض مهم.

- إنه طبيب ، ربما اهتموا به لهذا السبب.

- أعرف هذا ، لكن لا أعتقد.

- قد يكون بسبب إنه غريب.

- ربما ، لكن هناك العشرات منهم يتعرضون لحوادث.

- إذن لم هذا الإهتمام الزائد به؟.

- ألم تسمع المدير: إنها ليست حالة طارئة؟

- ما دام كذلك دعنا نفطر في أي مقهى.

بعدما خرجت الإسعاف من مدينة ((الزاوية)) بحثاً عن مطعم

على الشارع الرئيسي ، صادفهما بعد محطة تعبئة الوقود ، ركنا السيارة على جانب الرصيف وعبرا إلى الجانب الآخر ، جلسا يتناولان سندويش سردين مع البيض ، أكلا بصمت ثم حاورهما رواد المقهى ، كان الحديث ودياً وتبادلوا المعلومات عن الموسم الزراعي ثم ضاق الحديث حتى وصل إلى السيارة التي تعلن صفارتها منذ نصف ساعة عن وجود مريض بداخلها.

لقد نسيا إطفاء الصفارة مما سبب ارتباكاً في حركة السير على الشارع ، سارع السائق عندما توقفت دورية شرطة بالقرب من الإسعاف ، ادعى أن السيارة بحاجة إلى ماء لتبريد شبكة المحرك ، تحركا تحت رقابة الشرطة ، انطلقا بعد نصف ساعة بعدما ودعا رجال الدورية ، السائق يخاطب زميله:

- أنا أرثي لهذا المسجى في السيارة يا عيني: غريب ووحيد.

- ليس وحيداً ، لقد طالب به السواح ، أنظر.. هذا محضر الشرطة ، وجدوه عند الشاطئ ، أرادوا نقله معهم إلى بلادهم.

- ماذا يقول التقرير؟

- لقد تعرض لعملية سطو ، سرق ماله وكل الممتلكات الخاصة ، حتى جهاز الهاتف ، لكن لماذا القتل؟

- هل هو ميت؟ ، أننقل جثة؟ قل الحق.

- هو قتيل.. ، أين يدفنون الغرباء؟

- يا رجل ، استغفر الله ، قل.. هل هو ميت حقاً؟

استمر الجدال بين الرجلين حتى وصلا متأخرين إلى العاصمة ، لقد انصرف معظم الموظفين ولم يقبلوا إيواءه بعدما أثبت طبيب الحالات الطارئة إن الحالة لا تعود إلى قسمه ، كان مدير مستشفى المركزي قد غادر إلى بيته فاضطر المسعفان إلى حمل المسجى معهما إلى الفندق فتناوبا على السهر في سيارة الإسعاف حتى صباح اليوم التالي.

استقبلهما المدير بوجه عابس ، لم يلمهما بل أشاح عن عين أحدهما العوراء ، طردهما بكلمات نابية ، قرأ الملف جيداً بينما المسجى راقد على سرير متحرك وينتظر خارج بناية الإدارة ، بعض الزوار يمرون به دون اكتراث إلا صبي داعب منخريه.

عند خروج المدير مع اثنين من الممرضين ، استوقفته عجوز ، كانت تسأل عن المراحيض ، تأفف المدير وأجاب الممرض ، رفع الغطاء الأبيض عن الجسد ، طالعه المدير بنوع من الإهتمام ، ارتسمت نصف ابتسامة ثم استدار نحو الممرض:

- تمرره على جميع الأقسام ، يجري له فحص تام وبكل الأجهزة في الأقسام الثمانية مع تقرير واف يوقعه طبيبان ، لا تتركاه حتى يقيم الوضع بشكل جيد.

عاد لدائرته ، ثمة طابور طويل من المراجعين يودون المساعدة. تحاور الممرضان ثم قررا أن أحدهما يتولى المهمة والثاني يذهب ساعة لقضاء شؤونه الخاصة واتفقا أن يلتقيا عند قسم الجراحة.

المستشفى يقع على شارع رئيسي في العاصمة ويعج وقت الذروة

بمركبات كثيرة تتنابز بصفارات من أنغام شتى ، مما يدفع الكثير من المرضى لعدم ارتياده إلا في الحالات القصوى.

هو عبارة عن مقاطعة كبيرة ، كانت في الأصل أراضي زراعية ، تثمر باستمرار البطاطا وعلى هذا شاعت عنه تسمية مستشفى البطاطا ، لكن الطليان عندما حضروا لهذه الأرض منذ قرون قرروا قلع البطاطا وبناء مجمع عيادات طبية ، لذا فإن الأقسام تشكل بنايات منفصلة عن بعضها وتتباعد بأرض خالية ، كانت هذه الأرض حدائق جميلة وقد اعتنى بها الطليان لكنها أهملت لاحقاً فصارت مكب نفايات الأقسام ، تبقى أكياس القمامة حتى الثانية ظهراً تتكدس ، ثم تحملها سيارة الزبالة والتي غالباً ما تتأخر أو تتعطل.

البنايات لا ترتصف بشكل منظم ، فثمة بناء ، هو في أصله مستطيل ويتكون من دورين ، شيد باتجاه الشرق ويجاوره بناء آخر يتقاطع معه في أحد الأركان مما جعل الساحات الفارغة غير منتظمة الشكل ، فمرة تكون على شكل مربع وأخرى نصف دائرة واسعة وفي الغالب تبدو فلاة مقطعة الأوصال.

عند الباب الخارجي يقف حارس عجوز ، مهمته تنظيم السير والسماح بدخول المركبات إلى المستشفى ، إذا اكتظت السيارات يحول الأراضي الفارغة إلى مواقف للمركبات ، ويتقاضى عليها إجوراً ، الحارس يتذمر دائماً وكلما مر أمامه المدير يبث شكواه ، لديه وعد بأن ثمة حارساً آخر سيقدم قريباً ليعينه على العمل ، هذه

الأمنية رافقته طويلاً حتى مسك المدير لما كان يرفع الغطاء عن المسجى فوق السرير المتحرك ، ألح كثيراً وشد انتباه المدير بكثرة الملفات في يده.

- ماذا تحمل؟

- مرضى يودون الإيواء.

لهذا نسي المدير أن يتصل هاتفياً ، كما أخبر الممرضين ، بالأقسام بخصوص المريض ، فلم يتفاجأ الممرض عندما أدخله القسم الأول أن الطبيب المشرف لا يعرف شيئاً عن الحالة.

- إتركه هنا وتعال وقت الظهيرة.

فرح بالأمر ولحق زميله لقضاء بعض شؤونه الخاصة ، ترك السرير عند بوابة قسم الباطنة مما سبب مضايقة للناس الذين يدخلون أو يخرجون ، كل واحد يدفعه باتجاه.

عجلات السرير تجعل الحركة سهلة ، صبي مر برفقة أمه ، دفع السرير حتى نهاية القسم وعندما انتهت معاينة أمه سحب السرير ثانية وأخرجه من البناية كلها ، الأم نهرته مرتين وفي الثالثة تركته يلعب به ، لقد مل من لعبة السرير حين وصل إلى مكب النفايات ، عاد لأمه واتجها نحو البوابة الرئيسية.

ظل السرير يتأرجح بين الأقسام والأراضي الخالية ومستودعات القمامة أسبوعا عندما تذكره المدير قبل خروجه في نهاية الدوام من اليوم السابع ولم يجد حراجة من أن يوصي البواب العجوز في البحث عن السرير ، تلك مهمة شقت على الرجل العجوز ، لقد

أضاف إليه عبئاً جديداً فزاد من الشكوى. شتم المدير جهاراً بعدما توارى عن أنظاره ، ضرب دماغه براحة اليد كأنه يود أن يتركز.

لقد سمع كثيراً عن هذا المسجى ، المراجعون يشكون من وجود السرير قرب موقف السيارات أو تجمع القمامة ، الكادر الطبي يتهامسون بنفس الموضوع ، هو مخزن أسرار وإشاعات المستشفى ، تلتقي عنده وتفترق.

ترك البوابة ، بدافع الفضول راح يسأل عمن رأى السرير المتحرك ، لقد اهتدى إليه بعد جهد.

- سأضمن الهدية.

خمن قيمتها ، شعر بالإنتعاش بعد أن خطر بباله رقم كبير.

- لا بد أن يأتي الشاب اليوم أيضاً.

لقد اعتاد مروره وسؤاله منذ بضعة أيام ، شاب نحيل وقصير يسأل دائماً عن أستاذه ، لقد فقده منذ عشرة أيام ، بحث في أقسام الشرطة وجاب البلاد من الغرب حتى وصل العاصمة ، لم يعثر على أثر له ، لكنه مقتنع أن أستاذه لابد أن يكون هنا وأغرى البواب بهدية قيمة إن وجده.

الحارس العجوز تفقد المسجى واطمئن إلى أن الجسد كامل فلم تسرق يده أو رجله ، انتشى عندما تذكر الجائزة ، ابتسم للراقد ثم فكر أن يضعه في مكان أمن ريثما يأتي الشاب ، فكر كثيراً وكل فكرة يطرحها جانباً ثم استقر عند رأي أخير.

- أخبئه في القسم الجديد ، هو في طور التأثيث ولا أحد

يدخل إلى بناية (معالجة الجملة العصبية).

سحب السرير من موقف السيارات واتجه به إلى نهاية الأرض الفلاة ، دفع البوابة الزجاجية فوجد نفسه بمعية السرير في صالة واسعة ونظيفة.

فيها أحد عشر سريراً ، تفصل بستائر سميكة ، حشر السرير بينها ثم بدأ يكتشف القسم ، في النهاية وجد طبيباً شاباً وبعض الموظفين ، بادروه بالتحية ، فهو أشهر من علم في هذه المقاطعة ، الكل يعرفه ويحبه.

- هاـ حاج ، تفضل.

نهض الطبيب وأخذ بيد الحارس ، شعر بالإرتباك ثم انفرجت أساريره حالما أبدى الطبيب الإستعداد للمساعدة.

- أنا مثل أبيك ، تعال أنظر هذه الحالة.

قاده إلى السرير المتحرك ، انحنى فوق الجسد ، الحارس يراقب الحركة.

- هل هو قريبك؟

ناداه ، انحنى العجوز وأجاب بالهمس.

- لا ، لكن يهمني أمره.

- حاضر يا حاج ، إعتبره في أيد أمينة وسيكون أول مريض لنا ، سوف يبقى هنا وتحت إشرافي.

مد يده ثانية ليودعه ، خرج الحارس منشرح الصدر ، كأن الهدية أصبحت في يديه.

من سوء طالعه أن الشاب لم يأت على موعده فأجل فرحته حتى اليوم التالي ، بيد أن الشاب غاب ثلاثة أيام ، ساوره الشك أولا ثم القلق وقرر أن يبحث عن الشاب ، وديعته في الحفظ والصون ويمر عليها كل يوم ، فأصبح وجود الشاب هو المعضلة ، بكل الطريق الملتوية تناهى إليه أن الشاب عند مرقد ((سيدي عبد السلام)) ، حمد الله أن الشاب لم يمت بعد والهدية ما زالت.

- الأفضل أن تأتي. لهفته على أستاذه جعلتني أحدس إنه آتٍ لا محالة.

شعر الحارس بثقل الأمانة وقت أمطره طبيب القسم الجديد بأسئلة عدة ، كان يحتار فيما يقول ، لكن في داخله أحس بالتعاطف مع هذا الغريب ، تخلى عن فكرة الهدية وارتبط بالود ، كان يتلهف لرؤيته ، دون أن يحاصر بالأسئلة.

- يالعزاء أمك وأهلك.

واقتنع أن ما حدث كان محض صدفة ، ومن الصعب أن يؤسس عليها ، حاول التملص بأن بث دعاية بأنها مسؤولية المدير وعامله بإهمال ، لكن قبل إنتشار الإشاعة قدم الشاب.

التقيا بعناق حار ، كللته لهفة الحارس بإخلاء طرفه من ورطة ، والشاب بعثوره على ضالته ، سارا نحو القسم الجديد ، الحاج انهال بأسئلة جمة ، لم يك الشاب في وضع أن يطيل بالكلام ، كان يلتهم المسافة قفزاً ، تحدوه رغبة عارمة بأن يتأكد ، لقد ساوره هذا الوسواس ولم يعتد كثيراً لما سمع.

أسبوعان وهو يجول البلاد ، يخرج من مدينة ويدخل أخرى ومن دون أن يحظى بخبر يقين ، الكل ينفي ، هاتفه لم يتوقف من كثرة اتصالاته مع مراكز الشرطة والمصحات ، حتى ظن أن أستاذه قد ضاع فعلاً ، الرغبة في معرفة مصيره تأكل قلبه وسلامته أصبحت على مر الأيام حلماً خائباً.

- إن حدث شيء فادفنّي عند شجرة آدم.

توجعه وصية الأستاذ إذ يشعر بالتقصير من أدائها ، لكم هي حاجته ماسة إلى وجود الأستاذ ، لقد أخذ بيده منذ أمد ، كان عوناً له في مشوار الحياة ، ازدادت الصلة قرباً منذ خرج ذات يوم من بيته غير أسف ، لقد رحب به واستضافه في السكن ، من يومها نذر نفسه لخدمته ، كان الأستاذ يحرص على الصداقة والشاب على الخدمة.

يعشق الليالي الحلوة التي قضاها وهو يستمع إلى الشروحات ، يدخله إلى عالم واسع ويفتح له الآفاق ، حتى مواد الجامعة كان يفسرها بطريقة سلسلة وصار الإمتاع هو الرغبة المتأصلة في حياته ودراسته.

لم يخطر بباله أبداً أن يفقده ذات يوم ، لقد تعهد الأستاذ بإسناده حتى ينهي الجامعة ، امتلأ إشراقاً بالحياة وشب هادئاً ، رزيناً وذا مهابة بين الطلبة.

- أرجوك ، إسرع يا حاج.

الحارس عند البوابة الزجاجية توقف وأشر أن لن يدخل معه ،

الشاب القصير والضئيل مرق دون مواربة بين ظلفتي الباب ، لم يره أحد ، لكنه أثار انتباه العاملين ببكائه فوق السرير ، هرعوا إليه يرفعونه ، أبى أن يتزحزح ، ظلوا صامتين ويستمعون إلى تشنجات الشاب ، عندما شبع من النواح نهض عن السرير ، التفت صوبهم:

- هذا أستاذي.

لم يعلقوا ، استمعوا له.

- هو صديق العائلة.

رحبوا به ، قاده موظف إلى غرفة.

- منذ أسبوع ونحن نبحث عمن يعرف الرجل.

- لقد جبت كل المدن حتى يأست ، شكراً لكم.

- تعال غداً ، سترى الطبيب ، هو سيعطيك شرحاً وافياً عن حالته.

تودادعا ، في الليل تسلل الشاب إلى البناية ليبقى بجوار السرير.

في الصباح عرف نفسه بإيجاز أمام طبيب القسم ، وعرف أستاذه بإفاضة ، ألح الطبيب ببعض الأسئلة فلم يترك الشاب شاردة أو واردة إلا ورواها ، أبسط الأشياء صارت مهمة في نظر الطبيب ، كان يصف عادات أستاذه بشغف والطبيب يدون ملاحظات ، مرات يطرح نفس السؤال بصيغ عدة:

- أريد أن أفهمه ، سيساعد في علاجه.

أربع ساعات يقص الحقائق ولم يتعب الطبيب ، بل كان يتجدد

كل حين ويفرح عند سماع معلومة مهمة.

- أخبرني عن وضعه؟!

قام الطبيب ولم يرد.

- أرجوك.

- عند الظهرية تعال نكمل الحديث.

ذهب إلى الحارس ليقضي الوقت المتبقي.

- ما زال الخير في هذه الأمة.

استعاذ الحارس بالله ورفض الهدية ، لم يك الشاب ينوي مغادرة المستشفى ، القلق يرتسم على محياه ، تأخذه الظنون لكنه تصبر ، يبتعد عن الحارس ثم يعود ، ثم قفل راجعاً إلى القسم ، رن هاتفه ولم يرد ، كلم عائلته قبل ولوج البوابة ، وجد الطبيب يجري تمارين رياضية لذراعي المسجى ثم الساقين ، كان يستجيب للحركة ، دنا قريباً وشاهد الجفون مسدلة فشعر بالحزن.

- لا تحزن ، ثمة أمل.

تبع الطبيب إلى الغرفة ، جلس على كرسي جديد ، أغلق الباب فأحس بوسع الغرفة ، لم يبدأ الحديث بعد ، لكنه بدا كمن يراجع أفكاره قلب بعض أوراق الملف.

- ما اسمك؟

- جنيد البغدادي.

لملم الشاب نفسه مستعداً لسماع الخبر المشوق.

- اسم غريب ، ومن يكون المسجى؟

- إنه أستاذي ، هو طبيب مثلك ، .

- أعرف هذا ، وجدت معلومات في الملف ، يقولون إنه تعرض للسرقة ، أنا لا أظن ، من فعل هذا به كان خبيثاً ، أراد تدميره ، أن يبقى حياً وميتاً في آن معاً.

- ماذا تقصد؟

- كل الكشوفات ومن جميع الأقسام التي مر عليها تؤيد أن أعضاءه سليمة ، القلب ، الرئة ، الكبد ، المعدة ، كل أجهزته الداخلية تعمل بانتظام ، أي إنه لم يصب بنزيف أو أي تلف.

توقف يسترد أنفاسه ويبلع ريقه:

- إنه إنسان معافى ، مثلي ومثلك لكنه معطل الحواس ، إستجابته إلى المؤثرات الخارجية ضعيفة ، ثمة من تعمد تخريب جملته العصبية.

- ماذا؟

خرجت من الشاب مثل الصرخة بعدما نهض عن الكرسي وارتطم رأسه بطاولة.

- إهدأ ، لا خوف عليه ، أي حدث عارضي ممكن أن يعيده إلى الواقع ، مع التمارين سوف يتحسن تدريجياً.

توقف عن عمد ريثما يجلس الشاب ثانية.

- غداً أعطيك الجزم النهائي ، سوف نصوره بجهاز المقطع والرنين

وعليه سنرى إن كان يحتاج إلى تدخل جراحي من عدمه.

ألم الصدع أطاح بالشاب فسقط أرضاً ، أغمى عليه فتراكض المسعفون ، تولى المهمة الطبيب ، ربط له إنبوبة تغذية ثم ربت على خده:

- هل تعاني من مجاعة ياجنيد؟ ، لا باس عليك.

كان ممدداً على سرير يجاور أستاذه ، تبسم وتوجع فأمره الممرض بعدم الحركة.

- ساعة وسترفع عنك الإنبوب ، عليك أن تأكل جيداً ولا تجهد نفسك.

شعر بالراحة بعدما أوصى الطبيب بتعليماته.

- تستطيع أن تبقى مع أستاذك ، القسم فارغ وما زال جديداً ، أراك غداً.

لم يخطر بباله أن يفعل شيئاً ، فضل السكون فوق السرير ، ينظر صوب أستاذه ثم يغمض عينيه ، سمرهما في السقف فوجد الفراغ ، زاغ عنه بأن اصطنع أغنية لم يسمعها ، لم تأتِ الترنيمة بلسانه ، أفرغ رأسه من أي هاجس ، محاولاً الهروب من العبء الذي يتجسد أمامه ، تسلل الخوف إليه لكنه طرده بسرعة ، اعتبر تحمل المسؤولية اختباراً لرجولته ، لقد نضج فعلاً وعليه أن يكون كفؤاً ، أغمض عينيه ، ارتسمت في مخيلته هالة سوداء تقتلع الجذور ، تنحى عنها بأن دندن مع نفسه ، هذه المرة كانت الأغنية أليفة ، جاءت بالسكينة ، أمضى وقتاً طويلاً يعيد المقاطع حتى فرغت ، ما زال الهم يداهمه ،

اضطر أن يبعد اضطرابه بالنهوض ، تمشى في الردهة.

وصل إلى البوابة الزجاجية ، عائلته تقف بالخارج ، سر إذ رآهم ، فتح الباب ورحب مثل من وجد ضالته ، كان الأب في المقدمة ، لكنه أخرجهم ثانية بعدما دفع السرير إلى خارج الردهة ، لقد خوله الطبيب بذلك.

وجد لزاماً عليه أن يدير التعارف في الهواء الطلق ، تحلقوا حول السرير ، الكل ينظر إلى الراقد ، لا دهشة بل انكسار يلوح في العيون ، قال جنيد:

- أقدم لكم ، مالك الوجد.

كأن الاسم أثار شجوناً قديمة ، دمعت عينا الأم ، الأخت اقتربت كثيراً حتى لامست وجهه.

- مالك.. ، أقدم لك أبي ، هو من استقبله أبوك في ((القرنة)) ، كان ينتظر قدومك منذ أربعة عشر عاماً ، ها هو ضرير وهذه والدتي ، كانت تتمنى عدم مجيئك حتى تزوج بناتها من غرسها ، وهذا أخي الشرطي ، هو من طاردك عامين..

- لحظة.. انتظر.. لم أكن أعلم ، طلبت مني البحث عن زوج صديقتها ، ادعت إنه سرق مهر زوجته.

- هذه أختي الوسطى ، كانت تتشوق لسماع إخبارك يا مالك ، الأخت الكبرى كما تعرف مقيمة في ((بني وليد)) كما رغبت أنت.

- ماذا ؟

ثلاثة منهم عبروا عن استغرابهم بالسؤال.

- بلى. مالك الوجد مقيم في هذه الديار منذ أمد.

التفت صوب أبيه وعيناه مستقرتان في وجه والدته.

- أبي ، مالك بارك خطوبة طبيب المجمع الصحي على أختنا سالمة الوسطى ، ويرجوك أن توافق.

اكتسحت وجه الفتاة الحمرة ، دارت رأسها إلى الجدار ، بيد إنه في الحقيقة اقترب من مالك ، طبعت قبلة على خده ، بانت بعض الفرحة على الأب ، عندئذ هلهلت الأم وأطلقت زغرودة ، خافتة خشوعاً للمريض الراقد.

- إفرحي ، مالك سعيد بهذا الزواج.

- كيف حاله الآن؟

سأل الأخ فراح جنيد يشرح لهم ما سمعه ، كان يقص بنوع من التفاؤل ، لم يظهر الحزن في صوته ، في داخله خوف لكنه يكابر ليبدو قوياً أمام العائلة ، في نهاية حديثه شعر بالثقة في نفسه ما دام قد تعهد أمامهم بتحمل مسؤولية وضع أستاذه. جلب الأخ الأوسط طعاماً ، فرح جنيد فانهمك يأكل بنهم ، تركته العائلة منغمساً ، حالما شبع انتابته الراحة ، ربت على بطنه عدة مرات ، ثم جاءه الكسل ، استرخى فوق السرير وسرعان ما غط في نوم عميق.

ردهة القسم حل فيها الظلام ، يسبح في هدوئها بعض من تيار

هواء ، يعبر من خلال نافذة مفتوحة ، تتطاير له بعض الستائر ، خلق جواً منعشاً مما زاد من رقدة الإثنين.

عند الصباح مر الموظفون بهدوء ، السكينة ما زالت تخيم على القسم رغم توافد العاملين ، أغلقوا الباب بعدما سحبوا سرير مالك ، لم تصر عجلاته ، كانت لينة ومطاوعة فوق الأرضية.

بعد الظهيرة أعادوه ثانية فاستيقظ جنيد ، فزع لما رأى ضوء النهار قد علا البناية ، كأن شيئاً سرق منه ، تلمس جسده أولاً ثم تأكد من وجود الأستاذ ، استرخى توتره وأطلق زفرة طويلة ، عاجله طبيب القسم بتنهيدة مماثلة ، كان يقف فوق رأسه ، نهض خجلاً ثم مثل تلميذ انسحب خلفه.

أغلق الباب كالعادة ، استقر الطبيب وراء طاولة وجنيد اتخذ نفس الكرسي مقعداً ، أيقظ حواسه جميعاً ليسمع الخبر ، مازحه الطبيب أولاً ثم تلبس هيئة الرصانة ، بانت الجدية في صوته:

- لا نزيف داخلياً ، لا ورم ، لا تلف ، لا كسور ، لا تهدج في الأنسجة ، مبروك الرجل معافى وسليم ، لا يحتاج إلى أي تدخل جراحي.

توقف عن الحديث بعدما ابتسم جنيد ملء شدقيه.

- يحتاج إلى رعاية خاصة ، سأوصي لك بمجموعة تمارين رياضية ، أنا أثق بقدرة دكتور مالك ، وسيعود يتآلف مع الحياة.

انهمك يكتب في أوراق أمامه ، استغرق وقتاً ثم ختمه بأن رسم توقيعه فوق الورق.

-   بإمكانك أن تبقيه هنا لأي فترة ، لكني أفضل أن يرحل إلى دياره ، هنالك بالتأكيد سيرعاه أهله.

انتاب جنيد الحزن ، شكر طبيب القسم وخرج من الغرفة بأسى ، لأول مرة يثقل كاهله الهم ، أحس بخطورة الوضع ، إذ أصبح لا مناص إلا أن يتحمل الوزر ، الضحية ما زال أستاذه والفاعل كانت أخته ، فلا خيار من قبول قدره.

بصدر رحب استجمع أفكاره ورتب خطواته القادمة ، أمامه مشوار من التعب كيما يهيئ عملية النقل والتسفير ، كان في لجة الدوامة عندما وقفت بجواره سيدة متشحة بالسواد ، تضع خمار شفافاً فوق رأسها ، لا يكشف إلا عن عينين ذابلتين ، سمع صوتها ، مخنوقاً من نواح متواصل ، تخرج الكلمات متهتكة ، لم يفطن لما تقول ، بل شدته الكتلة الناحبة ، السواد يخفي جسداً مرتعشاً وخائراً ، انتظرت عند طرف السرير لتجلس فنهرها جنيد:

-   قومي يا مرأة.

طأطأت رأسها واقفة ، بحثت عمن يسند قوامها ، فاتخذت من سرير آخر كرسياً.

-   من أنتِ.. وماذا تريدين؟

رفعت البرقع فبان وجه شاحب وعينان متورمتان من البكاء ، الحرقة تترصع ببقع دم حمراء ، الأرق أحال الجفون لأهداب مكسرة.

-   أنا أختك ، بنت البطة السوداء.

- لعنة الله.

انتفض ، ردة فعله سريعة ، انتصبت ذراعه ورفرفت أصابعه توحي أن رجساً قد اقترب ، تلك الحركة كانت كافية لأن تهوي الأخت فوق الأرض ، تشنجت ورفست ثم مدت يدها تطلب الهواء ، كانت تختنق ، مسدت رقبتها عدة مرات ، هو يتفرج ولا يحرك ساكناً.

- اختلطت عليك الأمور فلم تعودي تميزين..
- كيف تعرفه؟
- تضخمت ذاتك فقتلت كل ما هو جميل.
- كيف تعرفه؟!
- قتلت روحك وجعلت جسدك عبئاً فوق خلق الله.
- أجب.. منذ متى تعرفه؟
- كأنك تتناسين ، منذ أيام قصاصات الورق الصفراء ، هو أستاذي.
- إذن أنا مغفلة!!
- غبية. النفس كانت تريده ، بالخطأ اعتقدت إنها رغبات الجسد.
- أنا ، إذن لم أفقه ما حدث لي.
- بلى حاربت الجمال بالقبح ، لطالما شرحت لك وكثيراً حاول مالك أيضاً ، الجزء المظلم من ذاتك أضاع الحقيقة.
- بكلامك هذا أنت تهد كياني. كل ما بنيت.

- أنت كتلة مشوهة.

- عليوه.. إياك والتطاول.

- أنا جنيد ، اغربي يا وجه البومة.

غادرت مندحرة ، عند البوابة وقفت كثيراً ، تنتظر من يناديها ، رجعت خطوة إلى الوراء ، توقفت ثانية ، حائرة لا تنوي على شيء ، طال انتظارها ، لم تبرح ، لعل المنقذ يقدم ، أخوها تشاغل بترتيب الغطاء فوق الجسد المسجى.

أراد أن يستنشق الهواء فوجدها ، اجتازها عابراً البوابة ، عندئذ تحركت لاحقة به ، وضعت يدها على كتفه راجية.

- اتعظ ، بما أصاب زمرتك.

نكست رأسها.

- يا امرأة ، أتعرفين؟ عرفة العراب صعد الماء إلى مخه.

- أعلم.

- أتعرفين؟ وهاب السلف أكل الجرب جلده.

ظلت ساكنة ، فتواصل سوطها:

- والخيزران تشتعل في أطرافه نار.

- ماذا؟!

لم تستفسر ، كانت تبلع ريقها.

- تهاوى برجك ، اطلبي الغفران.

سار بخطوات سريعة ، بعض الوقت فتوارت عن أنظاره ، أحس

بالراحة ، تنفس الصعداء ، ثم أطلق زفرة:

- على بركة الله نبدأ السفر.

سبع ليال وثمانية أيام هبت ريح عاتية ، اقتلعت رمال الصحراء ونثرتها في أزقة المدينة ، اختفت الأحياء بعدما صارت كالحة ، هوت جذوع الأشجار ، كاد الموكب أن يصطدم بها قبلما يخرج إلى طريق المطار.

الشارع واسع ، تغطيه الرمال من الجوانب ، الإنارة تتهافت أمام الحصى المتطايرة والحشرات الحائمة بكثافة حولها.

الموكب يتكون من سيارة نوع فورد حمراء اللون ومكشوفة السقف ، تحمل سريراً ذا عجلات ومغطى بناموسية من الحرير ، إلى الخلف صف من عشرين سيارة ، يركبها أصدقاء ومحبو مالك الوجد.

الأصوات تتعالى ، تشدو بابتهال ، ترافقه نقرات على الدفوف وفرقة القرب تعزف ألحانها بانتظام ، الموكب يسير باتجاه المطار وكأنه يسابق الريح ، جنيد يخاطب أستاذه:

- هؤلاء مريدوك يا مالك.

أمسك قطعة الحرير وهز السرير:

- نحن نغادر أرضاً إلى الأرض يا عطر السناء.

يتوقف ، يشد انتباه الراقد:

- نحن نبرح وقت الردى إلى ضوء الفلك.

* * *

تقع ((القرنة)) عند ملتقى النهرين ، من الخاصرة اليسرى لنهر الفرات تمتد على مدى النظر أرض شاسعة من قصب البردي ، إلى الأمام تقع المدينة ، طينية في البدء ثم امتد العمران لها كلما كثر سكانها ، هانئه وهادئة تنساب على امتداد شط العرب باتجاه الجنوب ، حيث يمتد الطريق العام المؤدي إلى ((البصرة)).

الطريق في بدايته يقدم من الشمال بمحاذاة نهر دجلة ثم يتخذ شكل استدارة ليتواصل نحو الجنوب ، عند الإستدارة ، أنشئ جسر متحرك فوق النهر كيما تعبر إلى الضفة الأخرى والتي هي أرض زراعية واسعة ، تمتد مع الأنهر لكنها تترك بقعة صغيرة أقيمت فيها المدينة.

سكان ((القرنة)) في البدء فلاحون لكنها تحولت إلى واحة يرتادها أهل الإقليم بعدما دخلت إليها الحرف ، على طول الشارع الرئيسي الذي يفصل المدينة ارتصفت الدكاكين ، يقطنها أصحاب الورش ، وهم في غالبيتهم من سكان مدن مهاجرين ، اختاروا هذه البقعة لوداعتها ولأن أهلها مشهورون بالكرم ، بيد إن هذه الدكاكين سرعان ما تحولت إلى مقاه ومطاعم وزوايا لبيع المسكوكات التي تحكي تراث المدينة منذ أن قام فيها نوح بصنع سفينته.

تتحول المدينة إلى مهرجان حينما تخرج منها المواكب ، في مناسبات كثيرة يحيي الناس احتفالات شتى ، أكبرها ذلك الذي يحدث أثناء موسم الحصاد ، والذي يصادف دائماً أواخر الربيع ، حيث تخرج المدينة عن بكرة أبيها ، بنات وصبيانا متجهين إلى

الحقول ، يبدأون الاحتفال بعد بزوغ الشمس ويشتد أثناء الظهيرة ، يتجمعون زمراً وسط الحقول ليرقصوا.

خرج الموكب من ((القرنة)) عند ملتقى جانبها الشرقي ، عليه أن يجتاز حقل سنابل القمح الذهبية كيما يصل ضفة النهر ، فضل الشبان والصبايا الإلتفاف حول الحقل من الشمال ثم الإنعطاف نحو الخاصرة وصولاً إلى مصب النهرين ، لكن صاحب الحقل استشاط غضباً حينما علم بنيتهم وأبى معانداً إلا أن يمر الموكب وسط حقله ، لقد شهر بندقيته بوجه الشباب فلانوا مطاوعين إكراماً لعناده ، يعرفونه جيداً ويقدرون محبته إلى ذويهم ، فهو وإن سكن أطراف ((القرنة)) إلا إنه من نسل عائلاتهم الكبيرة.

دخل الموكب وسط السنابل ، كانت تعلو هاماتهم ، بيد إن السرير يبدو من بعيد وكأنه يطوف فوق رؤوس السنابل المحملة بالقمح ، الفتيات مرحن قليلاً فتعالى الضحك لأن عمهن يسير فوق الحقل ، كانت الصورة بالنسبة لهن خرافية ، لكنها مضحكة أيضاً.

الشباب يتلاطفون مع الفلاح بكلام طيب عن محصوله لهذه السنة ، غمز أحد الشبان الشيخ:

- سنأكل خبزاً حاراً.
- من تنوري.

خرجت من بين سيقان الحقل امرأة منحنية الظهر ، في صوتها رنة صلابة وعزم

- من تحملون؟

سألت ، تأبى أن تمر عليها الغرائب دون دراية.

- إنه يا حاجة ، ابن ((الشيخ الوجد)).

- ماذا؟ ، مرحى... مرحبا بالعزيز الغائب.

وراحت تعدد مناقب مالك ، منذ أن رعته يلعب بالطين بجوار الجرف.

- كنت أطعمه كل يوم خبز تنوري.

من إيماءتها كأنه ابنها ، أنزلوا السرير رغبة لها ، ابتعد الصبية ، دارت حوله مرات ، تتأمله وتروي بعض الذكريات ، الشيخ اقترب فأوقفها عن الدوران ، سألت كثيراً واستفسرت بإسهاب عما أصاب ((فخار القرنة)) ، بعض أبناء إخواته يجيبون والبعض الآخر يطرق صامتاً إزاء لهفة هذه المرأة العجوز.

- خذوه إلى شجرة آدم ، هناك مرتع صباه ، انصبوا له خيمة وستنالون خبزي اليومي.

تحرك الموكب ليغوص أكثر في الحقل ، بعض سيقان السنابل تتهشم بمنجل الفلاح فاسحاً الدرب ، حينما اجتازوا الحقل ، انبسطت الأرض خضراء أمامهم ، شقوا الطريق صعوداً إلى قلب خاصرة النهرين ، تبدأ برابية صغيرة ثم تتصاعد تدريجياً حتى تصل ضفة شط العرب عند أول نشوئه ، انحدروا من طرف التلة قليلاً حتى برزت الشجرة العملاقة.

كان الوقت مغيبا فانعكس لونه الإرجواني فوق سطح مياه نهرين وشط ، يتلألأ اللون مع الموجات الهادئة التي تأتي من الضفة الشرقية لتلامس بهدوء الضفة الأخرى.

بعض من ضوء الشمس يتخلل أغصان الشجرة فيرسم ظلالاً وبقعاً ملونة فوق الأرض الخضراء ، جذع الشجرة مغروس في تربة طينية ، تتشعب جذوره في أطراف شتى ، تصعد الشجرة مائلة قليلاً نحو النهر ثم تستقيم عالياً ، أغصانها وأوراقها تمتد لتشمل مساحة واسعة.

تلك البقعة باتت ملتقى الزوار والسواح ونادياً لأمسيات يحييها الأهالي.

أنزل الشباب السرير ، صنعوا دائرة في البداية ضيقة ثم اتسعت واستقرت تحت غصن مهدل من الشجرة العظيمة ، نسمة هواء بارد مبللة بقطرات النهر تهب عليهم فأدركوا أن رأي العجوز حكيم.

- لا بد من خيمة.

لاحت لهم من بعيد تمشي الهوينا ، تراكضت البنات نحوها ، زوجها الشيخ يتبع خطاها ، الأولاد اعتبروا مجيئها امتناناً كبيراً لسيرة العائلة العظيمة.

اصطف الشباب تحت راية الشيخ في نصب الخيمة بينما سرحت العجوز بالفتيات نحو الجرف وهي تلقي تعليمات عن نوعية الطين وطريقة جمعه ، شمرن عن سيقانهن وخضن في حوض الضفة ، العجوز ما زالت تلقي توجيهاتها ، يكركرن لصوتها الرنان ،

رغم الشيخوخة ، خمس وعشرون فتاة نزلن إلى النهر ، وجدنها فرصة للمرح والتراشق بالمياه ، العجوز صارمة في نظراتها لكن شاركت في اللعب ، نالت قبلاً جمة فأحست بقوة جسدها ، كن يجلبن لها أكوام الطين وهي تنتقي ، ترمي الكثير وتختار الأفضل ، صوتها يجلجل:

- ما زال ... نحتاج الكثير.

القمر يرسل قرصاً فضياً إلى صفحة المياه ، الماء بين الأقدام يترقرق وينساب بهدوء.

- نحن بنات إخوته ، هو عمنا وتاج لرؤوسنا.

تسمع العجوز صوت إحداهن وتفرح لضحكها المتواصل.

- ومن يكون الشبان؟

- إنهم أبناء أخواته ، هو خالهم العزيز.

تناديها فتاة أخرى ، كانت تغرف الطين بطرف ثوبها فكشفت عن ساقين بيضاوين ، يلمعان لضوء القمر.

- أنتم إذن عائلة كبيرة.

الفتيات يتقاطرن نحو الجرف وفوق البساط الأخضر يتمددن.

- لا يضاهيه أحد في المحبة.

العجوز تبدأ العمل ، تخرج أكياسا صغيرة من صرر معقودة في وشاحها ، تفردها أمام دهشة الفتيات ، تشرح مكونات ذخيرتها:

- هذا قرنفل ، هذا جوري ، هذه حبة ((مستكة))...

انهمكت في الخلط ، تأخذ مقادير من أوراقها وتعجنها مع الطين ، كل كوم يتجانس تدفعه لفتاة مع أمر صارم:

- إعجني.. كأنك تعدين خبزاً.

انشغلن جميعاً ، العجوز تطوف عيناها تراقبان العمل ، وغالباً ما تتدخل حتى استوى العجين.

- من تجيد الغناء؟

انبرت ثلاث فتيات في تطريب الأم التي تقف أمام التنور لتجهز الخبز الساخن لصغارها ، بدأت الأغنية حزينة لكن إحدى المطربات حورت النغم فضحكت لها ، شلة منهن رقصت وأخرى تصفق ، العجوز هزت كتفيها طرباً ، فأخذنها إلى وسط الحلقة ، رقصن لها ، دب النشاط فيها فشاركت مبتهجة.

- إن شاء الله.. سيحيى مالك.

نالت قبلاً أكثر ، أملهن أن يسمعن هذا التطمين من امرأة خبيرة ، حملن عجين الطين وسرن نحو الخيمة ، ابتعد الشباب عن السرير فاسحين الدرب إلى سير النساء.

أشعلوا قناديل الغاز فعم الضوء المكان والجرف ، في كل موضع من جسد مالك تلطخ بنوع من الطين ، كانت العجوز بعناية تشرف على اللبخات ، حتى تغطى الجسد كله ، الشبان يراقبون بصمت ، ابتسامة وأمل يحذوهم ، الشيخ يربت على الأكتاف ، كان مطمئناً لما تفعله زوجته.

أمرهم بجمع الحطب ، تصاعدت ألسنة النار ، توهجت بلهب

ذهبي ثم استوت متأججة ، تجمهر الجميع حولها ، ثم مدت الفتيات بساط الطعام ، أكلوا بصمت ، كأن على رؤوسهم الطير ، أفرغوا خوفهم بإحياء أمسية سمر ، ابتدأها الشيخ بسيرة العائلة وأتمها الشباب بدبكة جماعية.

نعست العجوز فنامت عند أقدام السرير ، انسحبوا بهدوء بعدما قسموا المناوبة.

- الفتيات في النهار ، ونحن نسهر الليل بجواره.

الشيخ أصر:

- سأبقى الليلة هنا.

قرر إثنان من الشباب المكوث معه ، عاد الباقون إلى المدينة.

قد نام تحت شجرة أدم تلك الليلة جسد الطين ويحرسه شيخ وعجوز وشابان من أبناء أخواته ، وفوقهم يزحف ببطء في كبد السماء قمر مضيء.

تشقق الطين بحرارة الشمس المتوهجة فقام مالك عن السرير وسار نحو النهر ، كانوا نائمين عندما وصل الضفة ، هرع الشابان ليلحقا بخالهما ، لكنه سبقهما فغطس في الماء ، تصارخا ولطما ، أخرج رأسه ، كان يستحم ، سحبا نفساً عميقاً ثم تعانقا فرحاً لرؤيته ، كما كان ابن النهر يعود إلى سابق عهده يغتسل بالماء وسابحاً بمهارة.

توافد الناس فرحاً بعودة الغائب ، أقاموا الإحتفالات ، تحولت البقعة إلى مزار يؤمه ناس من نواحي المدينة الشتى ، يقدمون التهنئة.

زجالون يحيون جلسات السمر ومنشدو فرق موسيقية يأتون أول النهار ، لقد تحولت الأرض لمنتجع ، أقيمت سرادق للباعة المتجولين ، تعرض فيه الحلي والخرز والآثار ، يقدمون في النهار ويحملون محلاتهم الخيم عند حلول المغيب.

لم تعد البقعة تتسع للأعداد التي تزداد تدريجياً ، خاف الأولاد على خالهم فاضطروا إلى المناوبة في الحراسة أثناء النهار بالإضافة إلى الفتيات ، حينما يضيق بهم المكان يسحبون السرير ذا العجلات إلى أول الحقل الزراعي ، لكن غالباً ما يتشبث بهم زوار المنطقة على أن مجيء مالك هو الذي أحياها من جديد ، كاد أن يحدث التصادم عندما قدمت الشرطة وأزالت كل العشش المتحركة عن المكان ، كان قائد الشرطة فظاً في تصرفه ولم يراع توسل الأهالي بحرمة المكان الذي صار مباركاً ، لم يكن يسمع بل حد المطرقة ينفذ أمره ، مما دفع بعض الشباب إلى التشابك مع أفراد الدورية ، الأمر الذي دفع محافظ المدينة إلى القدوم بنفسه لفض الإشتباك ، كان رجلاً ليناً ، ومتفهماً.

تعرف على المسجى فوق السرير ، إذ سبق وأن كانا في مرحلة الثانوية ، ولطالما تغنى أهل ((القرنة)) بعظمة ابنهم البار والغائب عنها سنوات.

- لقد كنت أبيع منحوتاته في سوق المدينة.

دمعت عينا المحافظ وهو يتذكر ، وذرفت عندما رآه راقداً فوق سرير ، نظم زحام المكان وثبت موقع الباعة ونصب بيده خيمة عملاقة تحت الشجرة لتكون مأوى لمالك وشلته من الشبان والفتيات.

طاف الخبر بسرعة في الأرجاء فوفد الناس تباعاً من الأنحاء البعيدة لعيادة ((صانع الفخار)) ، يشترون ما يصنع من الطين.

لقد رجع إلى سابق عهده اللعب مع الطين ، تحضر شلة البنات من الجرف نوع ((الحري)) فيتحول بين أصابع معطل الحواس إلى أشكال جميلة ، أنامله تمس العجينة في الصباح وعند المساء يتسلمها الفتيان منحوتة بفخر وود ، أولاد الأخوات يعرضونها في محلات المدينة ، لكنهم ارتأوا أخيراً العرض عند مدخل الخيمة.

كان للسواح الأجانب القرار بهذا التعديل عندما وفدوا أول مرة يحملون آلات تصوير وبلكنة ركيكة تحاوروا كثيراً مع الأولاد يعرضون سعراً مغرياً لقطعة تمثل نصف جذع مصنوعاً من الطين ومصلصل بلهب نار ، رفض الفتيان المساومة ، فعرض السواح أخذ لقطات عن الضرير الذي يحول الطين إلى كائنات.

- بعد عرض الفيلم نضمن لكم علاجه في الخارج.

رفض الشباب ، كان عنادهم نابعاً من خوفهم بأن يفقدوا الخال ثانية.

- هذه أرضه ، سيعود معافى قريباً.

لقد تشربهم الإطمئنان بعدما كثر المعالجون ، من مدن بعيدة أتوا ، قدموا النصح في الزيارة الأولى ومن ثم باشروا علاجهم ، كان مالك يتحرك تحت أصابعهم ، يبدي بعض الإستجابة ، وفي أحيان كثيرة تصدر عنه إيماءات ، يتقافزون لها فرحاً ، العجوز تفسر للشباب الحركات وتعدهم بقرب شفائه ، هي لم تنقطع عن مرورها اليومي

وتأبى أن يباشر أي معالج إلا بحضورها ، تجهز خبزها الحار كل ظهيرة ، تطعم الفتيات وتنظم لهن الرحلة النهرية قبل المغيب ، يحضرن الطين كيما يبدأ صناعته في اليوم التالي.

الشباب طال مكوثهم حتى أثناء النهار ، بيد إنهم جميعاً يحضرون أمسيات الليل ، ينظمون صفوف الزوار ويعدون برامج الأمسيات ، وغالباً ما يشتركون مع فرق الإنشاد إذ يحفظون عن خالهم الكثير من ذكرياته ، تلك التي ورثوها عن أمهاتهم:

- أرضع مع حليب أمك أرث خالك.

عناد الأخوات بإحياء ذكرى الغائب شب منذ نعومة أظافرهن ، رسمن صوراً مختلفة عن هذا الخال ، حتى جاءهن محمولاً على سرير ، وجدت الفتيات في العم رجلاً أحلى من كل الخيال ، الفتيان رأوا فيه أمنية حاضرة.

- لن يفارقنا ، عاد الغائب إلى أسرته.
- لن نفرط به ثانية.

في صباح نهري تمرغل في التراب ، كان جسده يثقل على الحشائش ، شعر بلدغة برودة ، الجذور تختزن مياه الأرض ، ابتل بها ، تشربتها المسامات ، تمرد جسمه ، كأنه يفيق من غفوة ، النسيم يصعد في الأديم إلى فوق ، حيث الحواس ، كانت خاملة فارتعشت ، الأوراق والسيقان تلتف على الجسد ، تصنع تعريشة مختلطة بالنبض الحي ، لقد تواصلت الجذور مع العروق فتدفق الدم ، يجري راكضاً ، يلحق يبوسة الأطراف ، حيث تبدو العلامات.

مثل النائم كان ، ارتسم تحت وطأة الذكرى التي تسمرت ، لم تدر الأحداث في الداخل ، الركود يجرفه النبض المتسارع ، يزيح بعض الصدأ الذي التحم مع الجدران.

تسري الدرنات من تحت الأرض فترفع أيضها إلى الجسد المسجى ، تمده بالوهج ، إضاءة من رحم التجويف إلى عمق الظلام يتشابكان ويلتحمان في فلقة واحدة ، لم تقشر بعد لكنها تختزن وهجها ، طاقة من طرف فلقة ثابتة في غرين أرض الضفة تتمدد إلى عروق القلب ، يصحو النائم ، يبعد ظلام العدم إلى مرابع الأفق ، إنه ينمو بالأديم ويتفتح تحت ضوء النهار ، كعباد الشمس مال نحو الأشعة وشعر بالحيوات تتحرك في الجوف.

لم يكن يرغب في النوم ، الخروج من الركود استهلك طاقته ، استطال به الخمول فحوله إلى السبات ، يقطينة نامت عند الجرف ، دفعها التيار فتدحرجت في الطين ، تكورت وتغطت لكنها لم تصل إلى الإندلاع ، ما زال الغلاف صلداً ولم يتشقق ، من اللب تأتي الهالات ، يتشرب الأبعاد ، كان الطين يصبغه بالحياة ولم تبدأ بعد فيه ، إنه ينهض مثل اجمة طرية لكنها تبزغ من الأديم.

كن يتفرجن ، تجمهرن الواحدة تلو الأخرى ، يراقبن بصمت مطبق ، في لحظة ما حاولت إحداهن أن تتدخل ، تعين العم على الخروج من قشرته ، رمقنها بنظرات حادة فانتهرت ، سرت رعشة في جسدها ، اختضت فكانت الدموع الملجأ لما انتابها ، على مسافة كافية للمراقبة كن يقفن ، في البداية واقفات ثم افترشن الأرض ، نصف

قوس يصنعن فوق طرف الرابية ، هو كان قريباً من الجرف عندما تمرغل في التراب لكنه تدحرج مثل كرة ليستقر فوق الحشائش مبتعداً قليلاً عن ضفة النهر ، تصورن أن برودة المياه هي التي دفعته ، لكنه في الحقيقة تغلف بطبقة التراب فأراد إزاحتها بأوراق الشجر ، كن يسمعن طقطقة الأغصان تحت جسده ، خشين أن ينغرس غصن فيؤلمه ، لكنها هشة وتنسحق تحت وطأة ثقله ، لم يخطر ببالهن أنه يلهو بل يمارس طقساً خاصاً به ، حركاته تنبئ بذلك إذ أنها تتدرج وتتناغم مع معزوفة ، لطالما حفظنها من إرثه ، كل الأهل يرددون تلك الأغنية الشهيرة عنه ، كلماتها تدعو إلى النواح ، بيد إنه هنا أحالها إلى عزف لتناغم ولادة جديدة.

- ((على قتلي جميع الناس تسعى
مضى عمري وبقيت لأيامي تسعة
قضى سبعة وبقي يومان لي)).

لم يك بد من تدخلهن ، لقد أمضى وقتاً طويلاً مع طقسه ولم يقو بعد ، كان يحاول الإنعتاق ، لن يخفق إن استمر ، الفتيات خفن عليه من التواصل ، ركضن مهرولات يزحن عن جسمه الشوك والطين ، بعضهن مسح الجسد بماء النهر ، استبان تحت أبصارهن تماسكه وبياضه ، كأنه قشر عن جلده فخرج بياضه ، مشدوهات وبصمت يتبادلن النظرات ، ثمة ابتسامات تشع فيهن على حياء ، لم يبلغ العم عتيه من العمر ، يعود فتياً ، صلداً ، لذلك لم يقوين على رفعه.

نهض من تلقاء نفسه ، رمين فوقه ثوباً فضفاضاً ، هن يتحلقن

حوله ، حالما أحس بلهاث الأنفس مد يده ، تسابقن من تفوز أولاً بطرف أنامله ، هو ميز حرارة الأذرع الممتدة نحوه فأجل كفه طالبهن جميعاً ، كانت لحظات لعناق حلمن به طويلاً ، العم يعرف بنات أخوانه.

- هل يرانا؟

لم ترد أي فتاة ، لاحت منه ابتسامة ، كانت كافية لأن يرفعن الزغاريد عالياً ، الجمهور في البقعة المباركة سمع انطلاقة الفرح ، خرجوا يراقبون ، هرولوا باتجاه سرب الفتيات العائدات.

ثرثرة وأسئلة وحكايات انطلقت ، قاد مالك المسير نحو الخيمة ، الجموع وراءه تسير بخشوع ، دلف البوابة واستدل على كرسي ، قعد وانشراح ظاهر في وجهه.

أبعدن الجمهور المكتظ عن باب الخيمة حينما هم بالخروج ثانية ، شق دربه وسط الحضور ، الفتيات يتبعن مسيره ، إلى الحقل يسعى ، لم يقدن خطواته ، واثقاً يستدل طريقه ، انفصل عن بقية الناس بعدما شكلن صفاً طويلاً يحث الخطى وراءه ، تجول في حقل الذرة كثيراً ، يراقبن ما يبدر عنه ، رغم خوفهن لا يعترضن.

يقطع طرف ذرة ، يقشر غلافها ، يسحقها في راحته ، يقربها ليشم ، لم يشاهدنه يرمي البذور ، فتصورن أنه يمضغها ، على وشك الخروج من طرف الحقل عندما توقف ، أدار رأسه في عدة اتجاهات حتى استقر ، كأن ثمة شيئاً جذبه ، اتخذ سيره خطاً مائلاً عن بيت الشيخ حيث الفسحة الواسعة التي ترعى فيها الأغنام ، مر بسهولة

دون أن يصطدم بأي كبش ، شعرت العجوز به ، خرجت راكضة من دارها ، لم ترحب ، بل ظلت تلاحظ حركته.

انحنى على خروف هزيل ، تحسسه ، لاعبه ، الخروف حشر قرنيه في حضن مالك ، عندما نهض عنه تبعه إلى حيث مشى ، توقف عند التنور ، فتقدمت العجوز ، مالك يطلب خبزاً طازجاً فهرعت تعد أرغفتها.

- هذا أنت ، كما كنت في سالف عصرك.

الفتيات تكومن حولها ، توهج الحطب وفار التنور وبدأ الإعداد لوجبة غداء ، امتد سماط في باحة الدار ، اشترك فيه جمع غفير من نساء الجيران ، كل امرأة تجلب قدر طعام ، إلا امرأة ، تأسفت إنها خالية اليدين ، دثرت خجلها بوشاح أسود ، جلست بجوار مالك ، اعترضت بنات الأخوان على هذا الإمتياز الذي تريده امرأة غريبة ، همست له فاستدار نحوها ، قامت كتلة سوداء منسحبة من المائدة ، ذهبت باتجاه العجوز عند التنور ، قالت شيئاً وغادرت ، بين عيدان الحقل اختفت.

العجوز توقفت عن إنضاج الأرغفة قاعدة الأرض ، تسارع فتاتان طلبت معونتهما بإتمام العجين ، كان رأسها متهدلاً بين يديها وبصرها مصوباً نحو الأرض ، لم تجب رغم إلحاح الفتيات ، عقد لسانها ولم ينفك حتى نهاية الوليمة ، عندما أمرت أن يظل مالك في دارها.

انسحب الجميع بعدما حملت عصاً تهدد الجميع بالمغادرة ، البنات احترن بأمرها ، أخرجهن من الحيرة مجيء الأولاد.

- نخاف على عمنا ، كانت صارمة.
- لا تخفن ، لن تفعل ضراً به ، هيا.. عدن إلى ((القرنة)).

استلموا مالك من العجوز بعدما حل الظلام ، خرجت به حاملاً قنديل الغاز ، اقتربت من أول الحقل ونادت:

- تعالوا.

خرج الشبان مثل أطياف من عتمة المكان ، هشت مرحبة ، مسكوا الخال من يده وعادوا إلى المخيم ، كان الصمت يثقل خطاهم ، توقفوا لما همهم مالك بشيء ، لم يدركوا كنه ما يريد ، لكن حركته التالية أثلجت صدورهم ، صوته يخرج حروفاً مدغمة.

- تكلم.. سيتكلم.. اسمعوا.

منحهم ابتسامة جميلة فواصلوا طريقهم ينطون فرحين.

لم تكن لدى أي منهم رغبة في الحديث ، ساد الصمت في الخيمة ، انطرحوا فوق الوسائد وشيء ما يثقل صدورهم ، يتبادلون نظرات ولا ينطقون ، كأن شيئاً رهيباً سينفجر إن تكلموا ، بعض النظرات تطال الخال الذي اختار جلسة القرفصاء ، أثنى ساقيه تحته وطوى ذراعيه على وسطه ، جذعه العلوي ينتصب باستقامة ، العينان مركزتان في فراغ الخيمة ، يطالعون مدى بصره ولم يلاحظوا شيئاً ، إن مبادرة الحديث العادي ضاعت في خضم السكون ، استهلكوا في دواخلهم ، هل وصلوا في قراءة أنفسهم إلى الخواء؟ إنهم فتية يتفجرون حيوية ونشاطاً ، فما الذي أناخ بهم إلى

السكون؟ ربما ينتظرون أن يولد الرجل من جديد في خضم محاولاته الركامية ، تململ في جلسته فأحسوا إنه وصل نقطة الإتقاد ، دنا شاب وأمسك بيده ، ارتعش من الرهبة ، مسه تيار ، كان دفئا ورحمة ، حاول الشاب جاهداً تفسير الإيماءة ، احتار أن يكون مخطئاً فيما ظن ، قدم ورقة بيضاء ، مسكها الخال بنوع من التردد ، أومأ بشيء فتقافز الشباب مسرعين ، أحاطوا به وضيقوا الخناق منتظرين بلهفة ما يسفر عنه ، كانت حروفاً متعرجة ، مسمارية تبدو ، قلب الورقة فاستقام الخط.

- لقد كتب.

مثل شرارة أحرقت هشيماً ، انتشرت العلامة فيهم ، لم يتعانقوا أو يرقصوا كالعادة ، كل شاب يحتضن الورقة ، حرز يقربه من القلب ، لم يقرأوا بعد ما كتب ، أخذتهم المفاجأة فنسوا الطلب ، حتى استكانوا لصوت أحدهم.

- من يذهب معه إلى المدينة؟

بادر الجميع ووقع الاختيار على أكبرهم ، أفرغوا النقود وأعدوا سيارة على عجل ، ارتدى بدلته بنفسه ، بعض من لمسات الأناقة أضافها الشبان على هندامه ، كان يبتسم لكل يد تمتد ، خرج الإثنان فأحس البقية أن الخيمة خاوية من دون أنفاس الخال ، تمددوا يطلبون النوم ، لكن الثرثرة أخذتهم لحد الفجر ، غفوا كيفما شاؤوا مع إنهم ما زالوا يخمنون بالذي سيفعله مالك في **(القرنة)**.

- كأنهم أهل الكهف.

الفتيات يوقظن الراقدين في الخيمة ، مر على تبديل المناوبة الوقت الكثير فالشمس ارتفعت رغم تواريها خلف غيوم سوداء محملة بمطر قادم لا محالة ، نهضوا بتكاسل ، جلسوا جميعاً على مائدة الإفطار ، الشباب زاغوا مراراً من السؤال ، لكنهم أجابوا بعدما سألت العجوز ، تحمل إفطار مالك على رأسها ، رفعت قطعة القماش عنه.

- ما هذا؟

لقد رأوا العجب ، ثلاث أوان تحوي طعاماً لم يعرفوه أبداً ، أبعدت العجوز أيديهم ولم تشبع فضولهم ، ساوموها على الجواب فرفضت ، ولم يجدوا بداً من إخبارها بما حدث مع مالك ليلة أمس ، قالت:

- خير ، إن شاء الله.

خواطرها يقين بالنسبة لهم ، شعروا بالإنشراح ، لملمت الفتيات فتات الطعام لكن العجوز أصرت على عدم لمس أوانيها ، ظل لهم طلسماً كنهه ، استسلموا لعنادها المطلق.

مر النهار خاوياً ، لا يلوون على شيء ، قضوه في رتابة ، خرجوا في جولات سياحية إلى المناطق القريبة ، الناس ترحب بهم ، الكل يدعوهم إلى الضيافة ، هم فضلوا التجوال ، اجتازوا الجسر الخشبي فوق النهر بعدما رفضت الفتيات السباحة تخوفاً من المطر القادم ، عند الثنية الأخيرة من طرف الجسر وقبل الوصول إلى الطريق العام توقفت الفتيات ، صاحت إحداهن:

- إنها هي المرأة الغريبة.

بادرت امرأة متشحة بالسواد بالتحية ، مرقت مسرعة ، ومتجهة إلى الشارع المؤدي إلى (البصرة) ، إحدى الفتيات بكره شرير وصفتها:

- شيطان أسود ذو قرنين.

نكصوا راجعين ، أطلقوا نكاتاً كالبالون تنفجر مدوية مع كركرة متواصلة ، أزاحوا غماً غير مرئي.

مع حلول الظلام توقفت سيارة أجرة عند سفح الرابية المطل على خاصرة النهر ، اشرأبت الأعناق تنتظر الآتي ، ترجل منها رجل وسيم ، يرتدي بدلة رمادية اللون مع ربطة عنق أنيقة ، متورد الخدين أثر حلاقة ناعمة ، أضفت نضارة وحيوية على الوجه ، أشاع ابتسامة بعرض الثغر إلى المستقبلين ، دفع الشاب أجرة السيارة وقال:

- أقدم لكم مالك الوجد.

خمس فتيات اشتركن في (هلهولة) انطلقت من سقف الحلق ، العشرون الأخريات أكملن بزغرودة طويلة ، كانت أصواتهن ترقص فوق الرؤوس ، الرجال والباعة دكوا الأرض بأقدام ثابتة وكأنهم يتأكدون من صلابتها ، انفتحت البقعة أمامه ، سار بخطى واثقة ، يستدل على الطريق من وقع الأقدام ، قال الشاب المرافق:

- أقيموا الإحتفال ، هيا نشترك جميعاً.

دبت الحركة في الساحة ، عشوائية ثم انتظمت تحت توجيهات الشاب ، رسموا دائرة كبيرة ، نضدوا الكراسي ، ملأوا الشاغر من

الدائرة بفرش إسفنجي وأبسطة محاكة يدوياً ، تعلقت فوانيس الغاز وبعض أوراق الزينة ، انبرى الشبان يسوون الأرض بأقدامهم ، إنها الفضاء الرحب للرقص ، ارتكن عازفو الدفوف طرف الخيمة الجنوبي.

الظلام انتشر بسرعة والغيوم السوداء تركض والشباب يبدون حماسة للإستعداد ، استقر الحاضرون لتبدأ الحفلة ، نقر رجل أسمر طبلة معلناً بدء العزف ، لكنه توقف حالما سمع صوت سيارة تقترب ، مالت الرؤوس نحو شاب ضئيل الحجم وقصير ، يعتمر كوفية تلتف بطريقة غريبة حول الرأس والرقبة ، محرج من النظرات بيد إنه وصل مركز الدائرة ، خلع الغطاء وقال:

- أنا جنيد.. ولدي البشرى.

قام عشرون شاباً يحيون المقدام ، لقد خبروه منذ أن جاء بالمسجى أول مرة ، يدفع سريراً في أزقة (القرنة) ويسأل المارة عمن يعرف آل مالك الوجد ، أطلق أهل المدينة لقب المقدام عليه ، كبر في عيون الشباب وأعدوه أخاً لهم ، ترك الجميع وسار صوب أستاذه ، ألقى التحية بطريقته الخاصة ، كانت تنم عن فائق الإحترام والتبجيل لمالك ، عاد ليتوسط الدائرة.

- إسمعوا النبأ العظيم.

حبست الأنفاس.

- (اليونسكو) سوف تشرف على إعادة بناء مرقد سامراء[٧].

---

(٧) صدر هذا الإعلان في نوفمبر/ ٢٠٠٧.

تقدم الراقصون ، زمجروا بأصوات عالية مع إيقاع أجسادهم ، اشترك الجميع ثم انفرد شابان في رقصة (الهيوه) ، لم تطق الفتيات صبراً ، فدخلن الساحة ، خمسة وأربعون راقصاً ينثرون تراب الأرض من وقع أقدامهم ، تناغيهم جوقة الموسيقى ، تعرقت الأجساد ولانت من التلوي ، ارتفع الإيقاع ، (الخشابة) عزفوا للزوارق التي تمخر الموج وتعبر العشاق إلى بساتين النخيل ، طقطق الراقصون بقرب الأكف فرعدت السماء.

قام مالك من مكمنه ، هدأت ضجة الرقص ، فسحوا الدرب له ، كان عند اللب ، رفع رأسه واستدار لجهة الشرق ، مد سبابته تؤشر نحو الأعلى ، برقت السماء بخط ضوء منكسر ، لقد أخطأ مالك مكان الإنكسار ، يده الثانية تطلب الهدوء ، ساد صمت وانتظار ، رعدت من جديد فغير مكانه ، لحظات أخرى ثقيلة تمر ، زمجرت السماء فانكسر الضوء نازلاً إلى الأفق ، هذه المرة انحدر نحو الأرض ، التقطته سبابة مالك ، ارتعد بدنه ثم توهج برهة ، بغتة سقط على الأرض ، لم يقربه أحد ، لقد قذف قريباً من أقدام الراقصين ، مرت الدهشة للحظات فأدركوا أن الرجل واقف على قدميه.

- أنا مالك ، لقد عدت.

لم يجدوا وسيلة للتعبير غير الشدوه ، شدههم الموقف ولم يفطنوا إلى الخال قد تكلم ، لبضع لحظات اقتربت ابنة أخيه ، تلمسته ، طافت حوله ، طافت به.

- هذا عمي. هذا عمي.

عندئذ انهالوا عليه ، نقر العازف الأسمر طبلته فعادوا إلى الحلبة ومالك يشاركهم ، انقضى الليل وما زالوا يتبارون في الرقص.

بعدما انتصف النهار التالي حمل مالك جنيد وابن أخته الأكبر تذكرة سفر لامرأة متشحة بالسواد للعودة إلى ديارها ، مع قصاصة ورق تعلن ختام الفصل الدامي.

**للمؤلف:**

- قصص قصيرة، نشرت في الصحف والمجلات العربية.
- رواية "سفر الثعابين" دار الهمداني ١٩٨٧.
- بعد ٣٠ سنة اغتراب، عاد الى الوطن ليتعالى وجع مالك لديه.
- مخطوط رواية "جدد موته مرتين".
- بريد المؤلف:

adabinvest@yahoo.co.uk

رواية "تعالى.. وجع مالك" تتضمن مشهدا، يندر مثيله في الادب العالمي، او لنقل انه يقف مقتدرا ومكتفيا جنبا الى جنب مع ارقى النصوص العالمية.

هذا المشهد الحسي الراقي، المتعالي، اللاهث، العاصف، الكاسح، لم اقرا مثيلا له في الادب العالمي، وان نص "حميد الربيعي" ينضاف أليها باقتدار ومكنة وبصمة اسلوبية مميزة.

لقد قرائتها، وانا الناقد الذي يبحث عن الموضوعية، متوترا، لاهثا، مصعوقا، منبهرا، مسحورا، لم استطيع ألا ان ارمي بالرواية الى الهواء وأقفز واصيح: الله..الله، لقد شبعت واكتفيت.

هذا النص يقرأ كاملا وبهدوء ، وحيدا مع وضع تنبيه " ممنوع دخول ذوي القلوب الضعيفة"، ومن يعاني من عبادة الانوثة المقدسة وافعالها المباركة فسيجن او يصاب بأزمة نفسية حين يجد نفسه في موضع التلميذ، يتلقى دروسا من "بنت البطة السوداء"، مع تفتح وأنسعار الجسد الانثوي نتأكد ان ثمة قوة خارقة، فنانة، مبدعة رسمته بهذا الجمال.

**الناقد : د. حسين سرمك**

جريدة الصباح

